سيرة كمال يوسف الحاج وأبرز منجزاته[1]

١٩١٧–١٩٧٦

كمال يوسف الحاج في سنيه الأولى

كمال يوسف الحاج هو ابن الأديب والصَحافيّ والمربّي يوسف بطرس الحاج (١٨٨٣–١٣ حزيران ١٩٥٥)، من الشبانيّة، البلدة العامرة في منطقة المتن الأعلى (قضاء بعبدا)، والمدرّسة أديل (Adèle)،كريمة بشاره بن شديد عيسى (١٨٩٢– ١ كانون الثاني ١٩٧٢)، من عائلة شديد في بصاليم (قضاء المتن الشماليّ)، المتحدّرة من ذرّيّة بو حبيب الأرثوذكسيّة. تزوَّج والداه في ٦ أيلول ١٩١١ على مذبح كنيسة السيّدة في الشبانيّة، وسافرا بعد فترة وجيزة إلى مراكش (المغرب) للاسترزاق، فوُلِد كمال هناك في السابع عشر من شهر شباط ١٩١٧.

قضى كمال سنواته الأربع الأولى في مراكش. وأغلب الظنّ أنّ العائلة لم تَعُد إلى لبنان قبل العام ١٩٢١، لأنّ يوسف الحاج أصدر مجلّة **الوقائع الماسونيّة** في بيروت عام ١٩٢١، ودَفَن ابنه سامي (وعمر الابن آنذاك ستّ سنوات) في مقبرة رأس النبع في العام ذاته. لكنّ الدليل الأهمّ أنّه عَمَّدَ ولده كمال بتاريخ ٢١ آب ١٩٢١، أي بعد مُضيّ أربع سنوات على ولادته، وفي ذلك ما يثبت بشبه تأكيد أنّ العائلة كانت خارج لبنان حتّى العام ١٩٢١.

ثمّ انتقل يوسف الحاج مع عائلته إلى سوريا في العام ١٩٢٢ لفترة قصيرة، حيث أسّس جريدة **الأنوار** في دمشق يوم الأوّل من شباط ١٩٢٢. وفي الشام قصد أحد أصدقائه، حقّي بك العظم، وعن طريق الأخير كانت بداية تعرّفه بالشيخ خزعل خان، حاكم الأحواز (عربستان) وأمير المحَمَّرة، ثمّ نجاح الوساطة التي قام بها بين الشيخ خزعل وأولاده، الأمر الذي أدّى إلى اغتناء يوسف الحاج ماديًّا من جود الأمير خزعل. وأغلب الظنّ أنّ يوسف الحاج أقدم، في فترة يسره "الخزعليّة"، على اقتناء عقارات عدّة في أعالي الشبانيّة (منطقة "الغابة")، حيث ابتنى على أحدها شاليهًا ساحرًا من طبقتين، واسع الأرجاء، عُرف على لسان أهل الجوار باسم " العرزال". وكان الفتى كمال، ومن بعده أخته نجلاء وسامية، يعشقون العيش في هذا المنزل الخلّاب بعيدًا عن ضوضاء الأرض، قريبًا من بهاء السماء.

---

١. في تناولنا هذه السيرة نعتمد على ما ورد في المصدر الآتي (دون سواه): **مؤلَّفات كمال يوسف الحاج الكاملة، المجلّد التقديميّ** (منشورات بيت الفكر– أَسَسيَّة كمال يوسف الحاج، جونيه، لبنان، ، الطبعة الأولى، ٢٠١٤)، مجتزئين ممّا ورد فيه، وناقلين عنه بشكل شبه حرفيّ، من دون أن نشير إلى ذلك في الحواشي.

منذ العودة إلى لبنان عام ١٩٢١ نشط يوسف الحاج على المستوى الأدبيّ من جهة، وعلى خطّ نشر مبادئ الماسونيّة في لبنان والبلدان العربيّة من جهة أخرى. وقد أصدر أوّل كتبه الماسونيّة المعروفة عام ١٩٢٣، وهو بعنوان **دَحْض ظنون عن عشيرة الفَرْماسون**. وإثْر ذلك وقع صدام عنيف بين القطب الماسونيّ يوسف الحاج وزملائه من جهة، والجهات الكنسيّة من جهة أخرى، فاحتدمت الحرب الكلاميّة بينهما.

وما لبث يوسف الحاج أن هجر الماسونيّة بفضل جهود مطرانه العلّامة بولس عوّاد، واضع الترجمة الشهيرة إلى العربيّة لكتاب الخلاصة اللاهوتيّة للقدّيس توما الأكوينيّ (خمسة مجلّدات). ويخبرنا يوسف الحاج بنفسه أنّ هذا التحوّل حصل عام ١٩٢٦. مذ ذاك سُدَّت أبواب الرزق في وجهه، بل صارت حياته وحياة ذويه عرضة للخطر، الأمر الذي حمله على ترحيل أفراد أسرته إلى مصر طوال العامين ١٩٢٧ و ١٩٢٨، على سبيل الحيطة، ريثما تعبر عنهم زوابع الشرّ. وسكنت العائلة عند أخت يوسف الحاج، مريم، التي كانت قد استقرّت في الإسكندريّة منذ العام ١٩٢٥. وأثناء هذه الإقامة القسريّة فُجع آل الحاج بوفاة طفلتهم الصغرى، سامية (الأولى)، عن عمر لا يتعدّى الثلاث سنوات، في النصف الثاني من العام ١٩٢٧.

في بلاد النيل تعلّم الفتى كمال أصول الخطّ العربيّ على يد الخطّاط نجيب هَواويني، اللبنانيّ الأصل والخطّاط الخاصّ بالملك فؤاد الأوّل، إلى أن حاز شهادة الخطّ العربيّ في ٢٣ نيسان ١٩٢٨، أي في الحادية عشرة من عمره. وحظيت هذه المأثرة بإعجاب الكثيرين في مصر، فأقاموا له حفلة تكريميّة حضرها الشاعران خليل مطران وأحمد شوقي، واختتمها الوالد يوسف بقصيدة حِكَميّة. وقبل أيّام من حيازة شهادة الخطّ، كان أوّل ما رقشته ريشة الفتى الخطّاط غلاف ديوان صَدَرَ لوالده في مصر عام ١٩٢٨ تحت عنوان **الأسرة العلويّة في مصر**. ثمّ خطّ قصيدة جميلة نظمها والده عام ١٩٢٩ لرثاء الماريشال فردينان فوش، أحد القادة العظام في الحرب العالميّة الأولى، والقائد العامّ لجيوش الحلفاء عام ١٩١٨.

كمال يوسف الحاج في عمره المدرسيّ

لا نعرف شيئًا عن هُوّيّة المدارس الابتدائيّة الأولى التي ارتادها كمال يوسف الحاج، إنْ في لبنان أو في مصر، ولا عن فترة دراسته فيها. وأقدم شاهد حسّيّ على عمره المدرسيّ هو دخوله معهد الآباء اليسوعيّين في لبنان عام ١٩٢٩ في الصفّ الرابع ابتدائيّ ($8^{ème}$)، وكان ذلك يوم الرابع عشر من كانون الثاني على وجه التحديد بحسب لوائح المدرسة، أي في منتصف السنة الدراسيّة ١٩٢٨–١٩٢٩. بقي الحاج في هذا المعهد حتّى عام ١٩٣٥ (السنة الدراسيّة ١٩٣٤–١٩٣٥)، أي حتّى الصفّ الأوّل ثانويّ (2^{de}). وقد ترك هذه المدرسة بعد نهاية التِرِمسْتر الأوّل من السنة لأسباب غير معروفة، من دون أن يُكْمِل التِرِمستريَن الآخريَن.

تفيد سجلّات المدرسة أنّ كمال الحاج، في ختام السنة الدراسيّة ١٩٣٠–١٩٣١، كان طليع صفّه في الموادّ العربيّة (Prix d'Excellence)، كما حاز جائزة المثابرة في الموادّ الفرنسيّة (Prix de Diligence). وجاء أيضًا أنّ ضيف الشرف الذي ناب عن

المفوّض السامي في توزيع الجوائز أثناء الاحتفال الرسميّ باختتام تلك السنة، في ٣ تمّوز ١٩٣١، كان ضابطًا مغمورًا اسمه القومندان شارل ديغول.

في هذه الفترة أيضًا اقتبل كمال الحاج سرّ التثبيت في ٢٧ تمّوز ١٩٣٠ مع مجموعة من البنين والبنات، بينهم أخته نجلاء، ورفيقه الياس يوسف فارس سركيس (رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة لاحقًا)، من يد المطران بولس عوّاد في كنيسة السيّدة (الشبانيّة).

بعد الدراسة التكميليّة عند الآباء اليسوعيّين التحق كمال الحاج بالقسم الفرنسيّ من الكلّيّة الثانويّة العامّة التابعة للجامعة الأميركيّة في بيروت (التي ستصبح في ما بعد الـ International College) بغية متابعة دروسه الثانويّة. انتقل إلى هذه المؤسّسة في ١٥ كانون الثاني ١٩٣٥، فوُضع في الصفّ الرابع تكميليّ خلال ما تبقّى من السنة الدراسيّة ١٩٣٤–١٩٣٥. ثمّ أنجز تباعًا الصف الأوّل ثانويّ في السنة الدراسيّة ١٩٣٥– ١٩٣٦، والصفّ الثاني ثانويّ في السنة الدراسيّة ١٩٣٦–١٩٣٧، والصفّ الثانويّ الختاميّ (فرع الفلسفة) في السنة الدراسيّة ١٩٣٧–١٩٣٨.

في إضبارته الخاصّة المحفوظة في أرشيف المعهد، والمكتوبة بخطّ يده، تَرِدُ معلومات شخصيّة هامّة، منها أنّه كان يتمتّع بحسم ٣٠% على القسط المدرسيّ بموجب منحة، ومنها أيضًا، باللغة الفرنسيّة، اسمه، ومكان الولادة وزمانها، ومحلّ إقامته، وجنسيّته، ودينه، ومساره المدرسيّ السابق، وعنوان إقامة والده (خمسة عناوين، أربعة منها في بيروت والخامس في عاصمة بلاد الرافدين، حيث كنّى يوسف الحاج نفسه بالهاشميّ).

من اللافت، في هذه البطاقة المدرسّية، أنّ الحاج دوّن "البروتستانتيّة" في الخانة المخصّصة للدين، وهذا ما يقودنا إلى استعراض ما يمكن أن نسمّيه بداية "الحقبة البروتستانتيّة" في سني شبابه. فوالدته، الأرثوذكسيّة مذهبًا، كانت تنتمي روحيًّا إلى البروتستانتيّة تيمّنًا بأمّها زيزف بشاره، التي كانت مبشّرة محترفة من جماعة الكْوايكِرْز. لذا حرصت على تعميد نجلها كمال في الكنيسة الإنجيليّة الوطنيّة (بيروت) عقب رجوع الأسرة نهائيًّا من المغرب إلى بيروت عام ١٩٢١، بالرغم من تعميد كمال على الرتبة المارونيّة في الشبانيّة قبل أشهر قليلة. ومع انصراف الوالد إلى الأسفار المتعدّدة في طول العالم العربيّ وعرضه، فضلًا عن انخراطه في الحركة الماسونيّة لفترة طويلة (١٩١٢–١٩٢٦)، تحتّم على الأمّ النبيهة، الشديدة الأمانة لمسيحيّتها، أن تربّي أولادها على مبادئ الإنجيل في محيط مدرسيّ محافظ على هذه التعاليم. وهذا ما يفسّر مبادرتها الجريئة– هي البروتستانتيّة القُحّة– إلى وضع ابنها كمال في عهدة الآباء اليسوعيّين بادئ ذي بدء (١٩٢٩–١٩٣٥)، قبل أن تنقله إلى الكلّيّة الثانويّة العامّة، التابعة للجامعة الأميركيّة (بيروت)، في العام ١٩٣٥.

في هذه الفترة كان كمال يتشرّب التنشئة المسيحيّة من مصدر كاثوليكيّ (المدرسة اليسوعيّة) بالتزامن مع ما كان يختزنه بمقادير أكبر من المنابع البروتستانتيّة العديدة المحيطة به (والدته، بيئته في محيط رأس بيروت ابتداء من العام ١٩٣٥، الكلّيّة الثانويّة العامّة التابعة للجامعة الأميركيّة). وما لبث أن تقدّم بطلب انضمامه إلى الكنيسة الإنجيليّة الوطنيّة في بيروت مطلعَ العام ١٩٣٧.

فاصل السنوات الثلاث (١٩٣٨– ١٩٤١)

اضطرّ الشابّ كمال إلى التوقّف عن التحصيل العلميّ بعد نهاية العام الدراسيّ ١٩٣٧–١٩٣٨، وراح يعمل للمساهمة في إعالة الأسرة بعد مرورها بضائقة ماليّة حادّة، ولادّخار قسطه الجامعيّ لاحقًا. وهكذا كدح كعامل، تارة في معمل للحلاوة، وطورًا في آخر للعوازل الزجاجيّة أو السيراميكيّة التي توضع بين الأسلاك الكهربائيّة والأعمدة الحاملة. كما علّم أصول الخطّ العربيّ في بعض المدارس، ومنها مدرسة الحكمة. وفوق ذلك ساعد في أعمال التدريس والإدارة ضمن المدرسة التي افتتحها أبوه بين جدران دير مار يوحنّا مارون في قِبَّيع، قرب الشبانيّة، بعد عودته من العراق أوائل العام ١٩٣٩.

أهمّ ما في هذه المرحلة المُستقطَعَة من حياة كمال الدراسيّة أنّها شهدت انضمامه، عام ١٩٣٨، إلى **ندوة الاثني عشر**، المتأسّسة حول ميشال أسمر منذ العام ١٩٣٣.

تألّفت هذه الندوة من اثني عشر عضوًا تيمّنًا بعدد الرسل حول السيّد المسيح، ومنهم: ميشال أسمر، كريم عزقول، إدوار حنين، كمال يوسف الحاج، أحمد مكّي، رشدي المعلوف، حسيب عبد الساتر، خليل رامز سركيس، وآخرون. وكان الأعضاء يجتمعون، كلّ خميس، في منزل ميشال أسمر لا لشيء إلّا لأنّه الوحيد الذي كان له بيت خاصّ في العاصمة. وخلال اجتماعاتهم كان بعضهم يقرأ لبعض من نتاجه الخاصّ، ويتناقشون في الفكر والأدب والشعر. وفي العام ١٩٤٠ وضع الصحافيّ ميشال أبو شهلا مجلّة **الجمهور**، مجلّته، بتصرّف أقلامهم. وهكذا صدرت السلسلة المنتظمة الأولى من كتابات الحاج على صفحات مجلّة **الجمهور** في إطار نشاط **ندوة الاثني عشر**. وتزامنًا مع هذه الفترة ألقى الحاج أُولى محاضراته العامّة تحت عنوان **ما هي الفلسفة؟** في نادي المهاجرين (بيروت)، مساء الخميس ٩ كانون الثاني ١٩٤١، في إطار سلسلة نظّمتها **ندوة الاثني عشر**.

بقي الحاج عضوًا في **ندوة الاثني عشر** حتّى بداية تشتّت شملها ابتداءً من حزيران ١٩٤٠، بُعَيد سقوط فرنسا الصاعق في القبضة النازيّة، ومن ثَمّ انتقال السلطة الانتدابيّة على لبنان وسوريا إلى حكومة فيشي. لكنّ جلّ الأعضاء، ومنهم كمال الحاج، ظلّوا يوقّعون مقالاتهم، مع إضافة عبارة "من ندوة الاثني عشر" إلى جانب أسمائهم، حتّى النصف الأوّل من العام ١٩٤١.

الدراسة الجامعيّة (١٩٤١–١٩٤٩)

تنقسم فترة الدراسة الجامعيّة في حياة الحاج إلى عهدين أساسيّين: العهد الجامعيّ الأوّل بين جدران الجامعة الأميركيّة في بيروت (١٩٤١–١٩٤٦)، المُتَوَّج بنيل درجة الأستاذيّة في الأدب العربيّ، والعهد الجامعيّ الثاني في جامعة السوربون الباريسيّة (١٩٤٦–١٩٤٩)، المُختتَم بحيازة دكتوراه الدولة في الفلسفة.

العهد الجامعيّ الأوّل (لبنان، ١٩٤١–١٩٤٦)

التحق كمال بقسم الأدب العربيّ التابع لكلّيّة الآداب والعلوم في الجامعة الأميركيّة (بيروت)، مطلع العام الأكاديميّ ١٩٤١– ١٩٤٢. أمّا لماذا لم يتسجّل في الجامعة لنيل بكالوريوس في الفلسفة، فلأنّ المعنيّين بهذا الاختصاص فيها لم يكترثوا لربط الفلسفة بالأدب، والعكس بالعكس. لكنّ الحاج اختار الفلسفة كاختصاص ثانويّ، إلى جانب الأدب العربيّ كاختصاص رئيسيّ.

حول هذه المرحلة روى لنجله البكر، يوسف، أنّه كان يعمل في مطبخ الجامعة الأميركيّة ليعيل نفسه ويسهم في دفع أقساطه الجامعيّة. كما انضمّ إلى أوركسترا الجامعة عازفًا ماهرًا على الكمان، بعد أن أتقن الأداء على هذه الآلة إثر سنوات طويلة من الدراسة.

أثناء دراسته الجامعيّة كان حبيب أسعد بطرس هزيم (غبطة البطريرك اغناطيوس هزيم لاحقًا) زميله على مقاعد الدراسة وصديقه الأقرب من حبل الوريد. ومن زملائه الحميمين أيضًا، في الجامعة، غسّان جبران تويني، تأسيسًا على صداقة قديمة جمعت بين أبويهما، جبران تويني ويوسف الحاج، ووطّدها تقاطع مسارَي الرجلين في صفوف الماسونيّة اللبنانيّة. وعلى صعيد الأساتذة نذكر علاقته القويّة بأستاذ مادّة الفلسفة، شارل مالك، أبرز مفكّري الجامعة ولبنان في حينه. غير أنّ علاقته القويّة بمالك لم تكن تخلو من تباين في وجهات النظر، خصوصًا في مسألتين: الموقف من الفيلسوف الفرنسيّ هنري برغسون (إذ كان الحاج حينها في قمّة إعجابه ببرغسون بعد أن اكتشفه حديثًا)، وموقع اللغة العربيّة في فعل التفلسف.

أنهى كمال صفّ السوفومور عام ١٩٤١–١٩٤٢، لكنّه لم ينضمّ إلى كلّيّة الآداب والعلوم في العام الأكاديميّ التالي، ١٩٤٢–١٩٤٣، لأسباب ما زالت مجهولة. واستفاد كمال من هذه العطلة القسريّة ليبدأ أولى مغامراته الفكريّة وأجرأها، إذ قرّر ترجمة أطروحة برغسون الدكتوراليّة، **رسالة في معطيات الوجدان البديهيّة**[١](Essai sur les données immédiates de la conscience)، إلى العربيّة. تلك كانت المحاولة الأولى في الفضاء العربيّ، على الإطلاق، لترجمة أحد مؤلّفات برغسون إلى لغة الضاد. ولاحقًا، في أوائل صيف العام ١٩٤٤، تلقّف المستشرق الفرنسيّ لويس ماسينيون– وكان في لبنان آنذاك– هذه المبادرة بعين الرضى، مطّلعًا على عمل المترجِم الشابّ ومثنيًا عليه. ثمّ ساعده على تنقيحها وطبعها، فتمّ ذلك عام ١٩٤٥. ويومئذٍ اعتَبرت دار النشر الفرنسيّة Alcan، القيّمة على نتاج برغسون، هذا النتاج الأوّل لكمال الحاج "ترجمة رسميّة" لأحد مؤلّفات برغسون.

في العام الأكاديميّ ١٩٤٣–١٩٤٤ انضمّ كمال مجدّدًا إلى كليّة الآداب والعلوم، منهيًا صفّ الجونيور بنجاح مبرّز. وفي العام الأكاديميّ التالي، ١٩٤٤–١٩٤٥، أنهى صفّ السينيور، وحاز شهادة الإجازة في الأدب العربيّ، مع اختصاص ثانويّ في الفلسفة، في ٢٥ حزيران ١٩٤٥.

١. ١/ وجدان.

في العام الأكاديميّ ١٩٤٥-١٩٤٦ تابع الحاج مقرَّرات صفّ الماسترز في الأدب العربيّ، واجتاز الامتحان الخطّيّ بنجاح في ٤ نيسان ١٩٤٦. ثمّ باشر تحضير رسالة الماسترز بإشراف الدكتور أنيس الخوري المقدسيّ، وكانت تحت عنوان **مصطفى صادق الرافعي وأدبه**، فناقشها بنجاح في ١٣ حزيران ١٩٤٦ أمام لجنة فاحصة مؤلَّفة من الدكاترة أنيس الخوري المقدسي، أنيس فريحه، نبيه أمين فارس. وقد منحته الجامعة الأميركيّة في بيروت رتبة الأستاذيّة (الماسترز) في الأدب العربيّ بتاريخ ٢٤ حزيران ١٩٤٦.

واجه كمال، أوائل تلك السنوات الجامعيّة، مأزقًا عائليًّا كبيرًا محوره "الدعوة الداهشيّة"، الأمر الذي تسبَّب بتباين حادّ بين أمّه وأبيه، وربّما بانقطاعه عن الدراسة الجامعيّة في العام الأكاديميّ ١٩٤٢-١٩٤٣. وبيان ذلك أنّ والد كمال، يوسف الحاج، تعرّف إلى مؤسّس الداهشيّة سليم العشّي (١٩٠٩-١٩٨٤)، المعروف لدى العموم باسم "داهش"، أوائل العام ١٩٣٩. آنذاك لم تكن الدعوة الداهشيّة قد انطلقت بعد. وبعد انقضاء نحو ثلاثة أعوام على تعارف الرجلين، خرجت الدعوة إلى العلن على يد يوسف الحاج نفسه، وذلك في محاضرة شهيرة ألقاها مساء الثاني عشر من أيّار ١٩٤٢ في نادي المهاجرين (بيروت)، فسُمّيَ **المؤمن الأوّل** عند الداهشيّين منذ ذلك الحين. لكنّ العلاقة انقطعت باكرًا بين الرجلين. وخلال هذه الفترة الداهشيّة القصيرة من حياة الوالد حضر كمال، مع والديه، جلسة "استحضار روحيّة" في منزل داهش كان من أبرز نتائجها قيام تباين حادّ بين داهش والشابّ كمال، الأمر الذي حظي برضى والدته، المناهضة للداهشيّة، وعجّل، بمعنى ما، في انقطاع والده عن الداهشيّين وإيقاف نشاطه نهائيًّا في صفوفهم، لكن من دون أن ينشأ بسبب ذلك عداء متبادل بين الطرفين، كمثل ما حصل سابقًا مع الماسونيّين[١].

أثناء الدراسة الأكاديميّة في الجامعة الأميركيّة في بيروت، نُشرت للحاج في مجلّة **العروة**، وهي مجلّة أدبيّة علميّة تصدر في قلب الجامعة الأميركيّة عن منظّمة طالبيّة تُدعى **جمعيّة العروة الوُثقى**، ثلاثة أعمال هي مقالة **برغسون والشعر**، ومحاضرة **الواقع اللغويّ وتأثيره في الفرد والأمّة**، وخطبة بعنوان **من نحن؟**. كما صدرت له في مجلّة **الكلّيّة**، العائدة إلى الظهور بإشراف كلّيّة الآداب والعلوم في الجامعة الأميركيّة بعد احتجاب طويل، ثلاثة أعمال أخرى هي رسالة بعنوان **صديقي خليل**، ومحاضرة **بين نيتشه وجبران**، ومقالة **حديث شهادتي**. أمّا في السنة الدراسيّة الأخيرة (الماسترز)، فقد نُشرت له مقالة بالفرنسيّة، عنوانها **تجديد الشرق الأدنى**، في مجلّة[٢] Les Cahiers de L'Est.

بموازاة ذلك تميّزت هذه الفترة بتكرّس الحاج المكثّف لخدمة الكنيسة الإنجيليّة في بيروت، إذ تشير وقائع جلسات العمدة إلى نشاط ملحوظ قام به عامَي ١٩٤٣ و ١٩٤٤ لصالح ما يُسمَّى **مدارس الأحد**، وهي مدارس أسبوعيّة توفّر تنشئة بيبليّة وروحيّة للأولاد ما بين السادسة والخامسة عشرة تقريبًا، ويتآون زمانها بالضبط مع قدّاس الأحد، المُقْتَصِر حضورُه على البالغين.

---

١. لمزيد من التفاصيل حول هذه الناحية يُراجَع **المجلّد التقديميّ**، مصدر سابق، ص ١٨٥- ١٩١.

٢. تُراجَع هذه الأعمال، تباعًا، في: **المؤلّفات الكاملة، المجلّد الأوّل، المؤلّفات الأولى**، تحت الرموز الآتية: ١/ شعر، ١/ واقع، ١/ نحن ، ١/ صديقي، ١/ نيتشه ، ١/ شهادتي، 1/ Rénovation.

مع هذه الوقائع نسدل الستار على الفترة البروتستانتيّة من حياة الحاج (١٩٣٧-١٩٤٥)، وهي فترة محدودة لن يعود إليها في ما بعد. لكنّ هذه الفترة الإيمانيّة رفدته بمتانة مسيحيّة عقيديّة ثمينة بقيت سمته البارزة في جميع مراحل مساره الفلسفيّ اللاحق، إذ جعلته يواجه جميع المواضيع الحسّاسة بمقاربة شاملة، صافية، يحكمها الحسّ السليم، ولا مكان فيها لمآرب إيديولوجيّة مستترة. هذا عدا ما استمدّه، بفضلها، من انفتاح مسكونيّ أصيل سيبقى دومًا من أوضح معالم فكره المسيحيّ.

العهد الجامعيّ الثاني (باريس، ١٩٤٦-١٩٤٩)

ما إن أتمّ الحاج ترجمة كتاب **المعطيات البديهيّة** لبرغسون حتّى بذل المستشرق ماسينيون مساعي حميدة لدى الحكومة الفرنسيّة كي يحصل المترجِم الشابّ على منحة دراسيّة تمكّنه من السفر إلى فرنسا للتخصّص في الفلسفة، فتمّ له ما أراد. وهكذا استقلّ الحاج الباخرة **كورنثيا**، مُيَمّمًا وجهه شطر باريس في أوائل تشرين الثاني ١٩٤٦، فوصل إليها في أواسط الشهر. هناك استأجر شقّة صغيرة في **فندق السويس** الواقع على مقربة من جامعة السوربون، في قلب **الحيّ اللاتينيّ**، وهو بقعة من الناحية الخامسة في باريس تنبض بالحياة الطالبيّة والشبابيّة.

أيّام الدراسة في باريس كانت الكور الحقيقيّ الذي صفّى معدن المواهب الفلسفيّة لدى الحاج. فهناك انطلق حقًّا من جنان الأدب إلى أدغال الفلسفة. وقد قُيّض له، في مدينة الأنوار، أن يتعرّف إلى الفيلسوف جان- پول سارتر شخصيًّا، مجتمعًا به مرّات عدّة، ومرتادًا بعضًا من محاضراته، فكان رأيه فيه مزيجًا من الإعجاب والتحفّظ. وسيكون الحاج، لاحقًا، مِن أوائل مَن سيفرشون الفلسفة السارتريّة لقرّاء العربيّة. كما ارتبط بعلاقة وطيدة مع ابنة هنري برغسون الوحيدة، جان (Jeanne)، التي اهتمّت بنشاطه في نقل نتاج أبيها إلى العربيّة وأهدت إليه صورة والدها موقّعة بخطّ يدها، وهذه لفتة نادرة جدًّا منها. ولا بأس من تذكير القرّاء بأنّ جان برغسون وُلدت صمّاء بكماء، لكنّها كانت من أشفّ أهل الروحانيّات، واعتنقت المسيحيّة بعد وفاة والدها، الأمر الذي أثار في حينه تعجّبًا كبيرًا[١]. وقد باحت جان برغسون، في أواخر حياتها، بسرّ هذا الاعتناق للفيلسوف جان غيتون.

من الفرنسيّين الآخرين الذين ربطتهم بالحاج علاقة وطيدة يجدر بنا ذكر اثنين: لويس جوكس، مدير عامّ العلاقات الثقافيّة آنذاك والوزير لاحقًا، وبيار مينديس-فرانس، الذي سيصبح رئيسًا للوزراء في فرنسا من حزيران ١٩٥٤ إلى شباط ١٩٥٥. أمّا من أصدقائه اللبنانيّين فنعرف المنسنيور يوحنّا مارون، مدير البيت اللبنانيّ- الفرنسيّ، والأب رزق الله مخلوف، والسفير عادل إسماعيل، والطبيبَين جان زهّار وألبير حلو، والأخ الكُرَيْميّ بولس نجم. وفوق هؤلاء هناك، بالطبع، أساتذته في الجامعة، ولاسيّما المشرف على أطروحته جان- ماري لاپورت، الاختصاصيّ في فلسفة ديكارت والمتوفّى عام ١٩٤٨، تاركًا مهمّة إكمال الإشراف للفيلسوف جان إيپوليت، من دون أن ننسى الفيلسوف رنيه لوسين، رئيس اللجنة الفاحصة وأحد أساطين الفلسفة في جامعة السوربون، وأخيرًا لا آخرًا المستشرق لويس ماسينيون الذي وقف بكلّ قوّته، وبنجاح، وراء قرار جامعة السوربون القاضي بالموافقة على اعتبار ترجمة الحاج إلى

١. كانت ديانة آل برغسون هي اليهوديّة.

العربيّة لكتاب برغسون، **رسالة في معطيات الوجدان البدبهيّة**، بمنزلة أطروحة رديفة. وللتذكير نشير إلى أنّ الجامعات الفرنسيّة كانت تعتمد، وقتئذٍ، نظام الدكتوراه بأطروحتين، واحدة رئيسيّة وأخرى رديفة.

قدّم الحاج الصيغة الأخيرة من أطروحته الرئيسيّة[1] في ١٩ أيّار ١٩٤٩، بعد أن كتب جان إيبوليت، بصفته مشرفًا على الأطروحة الرئيسيّة وعضوًا في اللجنة الفاحصة، تقرير الإذن بالنشر في ١٢ أيّار ١٩٤٩. وكتب لويس ماسينيون، في ١٠ تمّوز ١٩٤٩، تقرير الإذن بنشر الأطروحة الرديفة، المؤلَّفة من ترجمة الحاج لكتاب برغسون **رسالة في معطيات الوجدان البديهيّة** مع مدخل لها، بالعربيّة، يوضح موقع هذه **الرسالة** بين أعمال برغسون وأثرها في تاريخ الفكر الإنسانيّ.

حُدّد موعد المناقشة الختاميّة للأطروحتين في ١٠ كانون الأوّل ١٩٤٩. وقد تألّفت اللجنة الفاحصة من رنيه لوسين (رئيسًا)، وجان إيبوليت (مقرّرًا للأطروحة الرئيسيّة)، وريمون باير (مناقشًا للأطروحة الرئيسيّة)، ولويس ماسينيون (مقرّرًا للأطروحة الرديفة)، وجان كانتينوه (مناقشًا للأطروحة الرديفة). وعقب جلسة المدافعة التي جرت تحت أنظار ديكارت وباسكال وبوسوييه، في قاعة لويس ليار (Louis Liard) الشهيرة في جامعة السوربون[2]، حاز الطالب كمال الحاج درجة دكتوراه الدولة في الفلسفة، مع تنويه "مشرّف جدًّا" من اللجنة الفاحصة.

قُبَيْل العودة النهائيّة إلى لبنان واجه الحاج مآزق عديدة، منها مأزق شحن مجموعة كتبه إلى لبنان. فطَوال فترة إقامته الباريسيّة قَتَّر الفيلسوف الشابّ بشدّة على نفسه كي يكرّس معظم أموال مِنْحَتِه الدراسيّة لشراء الكتب، فجمع مكتبة ثمينة وضخمة، ولكن على حساب صحّته، إذ تعرّض مرارًا لأوجاع مبرّحة في معدته من جرّاء قلّة التغذية. هذا الإهمال دفع بطبيبه، ذات مرّة، إلى إجباره على الخضوع لفترة نقاهة في أحد المنتجعات الفرنسيّة. وفي النهاية استفاد الحاج من دعم أحد الأصدقاء اللبنانيّين لتأمين تكاليف الشحن على الباخرة ذاتها التي حملته إلى لبنان.

العودة إلى لبنان والعهد الفلسفيّ الأوّل

عاد الحاج إلى لبنان في أواخر العام ١٩٤٩، وبدأ يعلّم الفلسفة بالفرنسيّة في مدرسة الآداب العليا في بيروت، على الأرجح تنفيذًا لشروط العقد الذي حاز على أساسه منحة الدولة الفرنسيّة. وقد زاول التدريس بين جدران هذا الصرح في السنوات الأكاديميّة ١٩٤٩–١٩٥٠، ١٩٥٠–١٩٥١، ١٩٥١–١٩٥٢. وفي بحر السنة الجامعيّة ١٩٤٩–١٩٥٠، التي ابتدأها من ربعها تقريبًا بعد العودة إلى لبنان أواخر العام ١٩٤٩، علّم أيضًا في الأكاديميّة اللبنانيّة للفنون الجميلة لصاحبها أليكسي بطرس. وخلال هذه المرحلة

---

١. عنوان أطروحته الرئيسيّة هو La Valeur du langage chez Henri Bergson، وقد نُشرَت في **المؤلَّفات الكاملة، المجلّد الخامس، في اللغة**، تحت الرمز 5/Valeur.

٢. خُلّد هؤلاء العمالقة الفرنسيس، إلى جانب موليير وراسين وكورناي، في لوحات زيتيّة بديعة رسمها الفنّان فرنسوا شومير وجُعِلَت إلى جدران **قاعة لويس ليار** الملبَّسة بالخشبيّات الفاخرة، ماعدا الجدار الأوسط فوق منبر اللجنة الفاحصة، حيث عُلّقت لوحة عملاقة للكاردينال أرمان ده ريشوليوه (Armand de Richelieu)، مؤسّس الأكاديميّة الفرنسيّة، وصاحب الفضل الأوّل في تجديد مباني السوربون، ومشيّد كنيستها الشهيرة التي تحتضن رُفاته حتّى اليوم.

أيضًا نسج علاقات متينة مع الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، وراح يحفّزها على إطلاق التعليم العالي (الجامعيّ لاحقًا) ضمن مؤسّساتها التربويّة. ومع انطلاق السنة الأكاديميّة ١٩٥٠-١٩٥١، في ١٠ تشرين الثاني ١٩٥٠، تحقّقت رغبة الحاج هذه، فدُشّن **معهد الروح القدس–الكسليك**، باكورة معاهد التعليم العالي في عالم الرهبانيّات المارونيّة. وقد واكب الحاج هذا الصرح منذ انطلاقته الأولى، فأمَّه أستاذًا للفلسفة، وبقي فيه حتّى منتصف ستينيّات القرن العشرين.

تميّزت السنة الأكاديميّة ١٩٥٠-١٩٥١ بإلقاء أولى محاضرات الحاج في دار **الندوة اللبنانيّة**، المنبر الثقافيّ الذي كان صديقه ميشال أسمر قد أسّسه في خريف العام ١٩٤٦ بعد انفراط عقد **ندوة الاثني عشر**. أُلقيَت هذه المحاضرة في ٢٨ أيّار ١٩٥١ باللغة الفرنسيّة، وكانت حول **ازدواجيّة اللغة ولبنان**[١]. وهي المحاضرة الأولى والأخيرة للحاج بالفرنسيّة.

حملت بدايات السنة الأكاديميّة التالية، ١٩٥١-١٩٥٢، حدثًا مفصليًّا في حياة الحاج: تأسيس الجامعة اللبنانيّة بجهود قلّة قليلة، ومنهم الحاج نفسه. ففي صبيحة الإثنين ٣ كانون الأوّل ١٩٥١ استقبلت الجامعة الجديدة، المؤلّفة آنذاك، حصرًا، من **دار المعلّمين العليا** و**معهد الإحصاء**، الفوج الأوّل من طلّابها، وكان عددهم سبعة وستّين.

ما إن فتحت الجامعة اللبنانيّة أبوابها حتّى أطلق الحاج ثورة تربويّة، إذ راح يلقي، باللغة العربيّة، محاضرات جامعيّة حول فلسفة رنيه ديكارت، ناشرًا حلقاتها تباعًا، ما بين شباط وتمّوز ١٩٥٢، في مجلّة **الحكمة**، المُنْشَأة قبل ثلاثة أشهر. وشكّلت هذه المحاضرات فتحًا جديدًا في التدريس الجامعيّ، ومغامرة فكريّة ثوريّة اهتزّت لها أروقة الجامعة الناشئة ودوائر التربية في لبنان، لأنّ الفلسفة العالميّة، حتّى ذلك الحين، لم تكن تدرّس بالعربيّة أبدًا. وأعاد الحاج إلقاء هذه المحاضرات الديكارتيّة خلال السنة الأكاديميّة التالية، ١٩٥٢-١٩٥٣، بعد تنقيحها وتوسيعها، ثمّ أصدرها في كتاب بعنوان **رنيه ديكارت أبو الفلسفة الحديثة** في أيّار ١٩٥٤. وخلال السنتين الأكاديميّتين ١٩٥١-١٩٥٢ و١٩٥٢-١٩٥٣كتب سلسلة من المقالات حيث أعلن، بكلّ وضوح، إطلاق ورشته الفلسفيّة الكبرى، مستعيرًا منبرَي مجلّة **الحكمة** ومجلّة **السنابل** كي يزرع البذور الأولى لنهضة فلسفيّة كبرى عبر مقالات عدّة هذه عناوين بعضها: **"نحن والفلسفة"**، **"بين الأدب والفلسفة"**، **"غاية الفلسفة"**[٢]. ولم يكتفِ الحاج بهذا، بل راح يكتب في المرأة وكرامتها، وفي علاقتنا الصحيحة بالغرب وباللغة العربيّة، فضلًا عن متابعة نشر مقالات "غير ملتزمة" يتناول فيها مسائل فلسفيّة نظريّة. هكذا بدأ نجمه يسطع في دنيا الفلسفة. وقد بدا للجميع أنّه منطلِق في ورشة فلسفيّة، عربيّة اللسان، هي من أجسر الورشات، وأصعبها، وأكثرها إبداعًا، لكنّه وحيد في مساره.

١. Bilinguisme /5.

٢. تُراجَع هذه المقالات، تباعًا، في: **المؤلَّفات الكاملة، المجلّد الرابع، فلسفيّات**،تحت الرموز الآتية: ٤/ فلسفة، ٤/ أدب، ٤/ غاية.

في هذه الأثناء تأسّست في لبنان **جمعيّة أهل القلم** في منتصف العام ١٩٥٢، وكان هدفها جمع أعلام الكلمة تحت راية واحدة، وتعزيز حضورهم العامّ، وصون حقوقهم الأدبيّة، فواكبها الحاج منذ بداياتها. وقد استلهمت هذه المبادرة الرائدة مثال **جمعيّة أهل الأدب** في فرنسا[١].

كان مؤسّسو **جمعيّة أهل القلم** ثمانية عشر، وتولّى نيابة رئاستها[٢]، بداية، فؤاد افرام البستاني قبل أن تؤول رئاستها، رسميًّا، إلى صلاح لبكي في كانون الأوّل ١٩٥٢. وقد احتضنت جمعيّة أهل الأدب في فرنسا الانطلاقة الأولى لرديفتها اللبنانيّة، فعيّنت الشاعر الفرنكوفونيّ جورج شحاده ممثّلًا لها لدى **جمعيّة أهل القلم** في لبنان.

في هذه الفترة الخصبة، وتحديدًا في خريف العام ١٩٥٢، تعرّف كمال الحاج إلى زوجته العتيدة ماغي، الطالبة في الأكاديميّة اللبنانيّة للفنون الجميلة. وقد حصل التعارف الأوّل بين الأستاذ والطالبة في منزل المفكّر السوريّ القوميّ الاجتماعيّ وخال ماغي، الأستاذ أسد الأشقر، في ديك المحدي. والأخير، إذ فُتن بمقالات الحاج، راح يبحث عن عنوان كاتبها إلى أن وجده بفضل عجاج المهتار، الصديق المشترَك لأسد الأشقر ويوسف الحاج، وجار الأخير في منطقة رأس بيروت. وهكذا طَرَق بابَ آل الحاج ذات يوم، بائعًا لكمال أنّه يتمنّى توطيد علاقة فكريّة قويّة معه بعد كلّ ما قرأه له من بديع البيان الفلسفيّ. ثمّ رتّب الأشقر اللقاء الأوّل بين كمال وابنة أخته ماغي، المثقّفَة الحادّة الذكاء والواثقة الشخصيّة، على مائدة غداء في دارته في ديك المحدي.

بعد اللقاء الأوّل صار كمال وماغي يلتقيان بانتظام. وماغي ذوّاقة موسيقى كلاسيكيّة ، فضلًا عن كونها عازفة بيانو، وكاتبة محترِفة عن الثقافة الموسيقيّة وعن تعزيز أحوال المرأة وتحسين تربية الناشئة. وقد أُعجب الأستاذ بتوقّد ذهن الطالبة الفتيّة، فتوطّدت بينهما مودّة روحيّة ما لبثت أن ارتقت إلى حبّ فعهدٍ على الزواج.

في الثامن والعشرين من آذار ١٩٥٣، وكان السبت السابق لأحد الشعانين، اقترن كمال يوسف الحاج بماغي الأشقر، ابنة الوجيه المتنيّ الشيخ زعيتر الأشقر، الصديق الحميم للبطريرك أنطون عريضه. وقد جرت مراسم الزواج في كنيسة مار الياس الرعائيّة في ديك المحدي نزولًا عند رغبة "العمّ" الجليل.

كان الزواج فاتحة خير في حياة الحاج. فبعد مُضيّ أسبوعين على القران عُيّن، بموجب المرسوم رقم ١٨٤٤ الصادر في ١١ نيسان ١٩٥٣، رئيسًا لمصلحة الشؤون الثقافيّة في الإدارة المركزيّة لوزارة التربية الوطنيّة. بذلك أصبح أوّل رئيس لهذه الدائرة المستحدَثة التي شكّلت النواة الأولى لما سيصبح لاحقًا، في لبنان، وزارة الثقافة. وجاء هذا التكليف بالتزامن مع تعيين فؤاد افرام البستانيّ رئيسًا للجامعة اللبنانيّة خلفًا لخليل الجرّ. ثمّ انتُدِب الحاج، بالنيابة عن وزير التربية الوطنيّة، لترؤّس مجلس إدارة المعهد الموسيقيّ (الكونسرفاتوار

١. أُنشئت هذه الجمعيّة عام ١٨٣٨، وكان من مؤسّسيها هونوريه ده بلزاك وفكتور هوغو وألكسندر دوماه وجورج ساند.

٢. فضلّت الجمعيّة، عند انطلاقتها الأولى، ترك منصب الرئيس شاغرًا.

الوطنيّ لاحقًا) من جهة، واللجان الفاحصة المولجة إجراء الامتحانات النهائيّة في الأكاديميّة اللبنانيّة للفنون الجميلة من جهة أخرى. كما ربحت زوجته ماغي نصف قيمة إحدى الجوائز الكبرى في اليانصيب الوطنيّ اللبنانيّ.

افتتح الحاج العام ١٩٥٤ ببحث–قنبلة عنوانه "**في اللغة–الأمّ**"[١]، حيث طرح بالعربيّة، وللمرّة الأولى، مجمل نظريّته حول علاقة الوجدان باللغة. وكان هذا البحث إيذانًا بانطلاق مؤلَّفاته العربيّة حول فلسفة اللغة، المستقطَرة من الخلاصات الفلسفيّة التي كان قد توصّل إليها في أطروحته الدكتوراليّة.

وقد شهد العام ١٩٥٤ أحداثًا مفصليّة أخرى في حياة الحاج العامّة والخاصّة. ففي شباط منه أعلنت مجلّة **الحكمة** عن ولادة حلقة أدبيّة باسم **حلقة الثلاثاء** في منزل كمال الحاج "عشية أحد الثلاثاءات"، وأهدافها إنشاء دار مساهمة للنشر، ووضع جائزة للقصّة (على أن يتّسع نطاقها لاحقًا ليشمل الشعر والدراسة والنقد وغيرها من الفنون الأدبيّة)، وإطلاق سلسلة من المحاضرات. لكنّ هذه الحلقة، كما **جمعيّة أهل القلم**، لن تعمّر إلّا لسنوات قليلة، من دون إنجازات تُذكَر، وستنحسر بشدّة بعد أزمة السويس (١٩٥٦)، ثمّ تحتجب نهائيًا قبيل أحداث العام ١٩٥٨.

في آخر شهر آب من العام ١٩٥٤ فُجع كمال الحاج بموت شقيقته الوسطى نجلاء في المستشفى بسبب نزيف حادّ أعقب وضع مولودها الأوّل. وبعد أشهر قليلة أصدر الحاج الجزء الأوّل من كتابه **هنري برغسون**[٢]، مهديًا إيّاه إلى روح شقيقته. ثمّ أتبعه بالجزء الثاني، الصادر في أوائل العام ١٩٥٥.

هذا المؤلَّف حول الفلسفة البرغسونيّة هو ثاني الكتب التي أصدرها الحاج في حياته الفكريّة، إذا ما استثنينا ترجمته لكتاب برغسون **رسالة في معطيات الوجدان البديهيّة**. وقد شاءه، على مثال كتابه الأوّل عن ديكارت، فرشًا خلّاقًا لِتَرِكة أحد معلّمي الفلسفة الغربيّة وبناة الفكر العالميّ. وكانت خطّة الفيلسوف الشابّ الطموحة تلحظ عرض كامل التراث الفلسفيّ الغربيّ باللغة العربيّة– أو، بتعبيره، إلباس الفلسفة الغربيّة "عباءة عربيّة"– توطئة للمرحلة الثانية، أي مرحلة التفلسف الخاصّ حول معاضل لبنان باللغة العربيّة. وكان قد عقد النيّة، في إطار سلسلة خاصّة من عشرة أجزاء خطّط لها تحت عنوان **نوابغ الفلسفة الغربيّة**، على استعراض فلسفات كلّ من ديكارت وسبينوزا وليبنتز وكنط وفيخته وشيلنغ وهيغل وماركس وبرغسون وسارتر. لكنّ الأقدار حالت دون إكمال أكثر من الحلقتين الأوليين في السلسلة (ديكارت وبرغسون).

وسط هذه الرؤى العُظمى رُزِق كمال الحاج ابنه البكر، يوسف، في ١٩ كانون الثاني ١٩٥٥، بعد أن حملته انتخابات **جمعيّة أهل القلم**، في ٥ تشرين الثاني ١٩٥٤، إلى عضويّة مجلسها الإداريّ الثاني بإجماع الناخبين الحاضرين.

---

١. ٥/ لغة.

٢.٢/ برغسون١، ٢/ برغسون ٢.

بعد مُضيّ بضعة أشهر على هذه المناسبة المفرحة ابتلي الحاج، في بحر ذاك العام الذي شهد أيضًا أهمّ كتاباته حول الفلسفة السارتريّة[1]، بفاجعة ثانية في أقلّ من سنة: وفاة والده يوسف في ٥ حزيران ١٩٥٥، بعد أن راح يذبل تدريجيًّا منذ وفاة كريمته نجلاء في ربيع عمرها.

ودّع الحاج عام وفاة والده بالتأمّل والانسحاق، فيما كان مار بولس بطرس الموشي يرتقي سدّة البطريركيّة المارونيّة في ٢٨ نوّار ١٩٥٥، وصلاح لبكي يودّع **جمعيّة أهل القلم** إلى دنيا الحقّ في ٢١ تمّوز ١٩٥٥، تاركًا وراءه صراعًا على الرئاسة بين سليم حيدر وإدوار حنين. ودُعي الاعضاء إلى جمعيّة عموميّة استثنائيّة لانتخاب الخلف في ٢٠ آب ١٩٥٥، فجاءت النتيجة لصالح إدوار حنين في معركة سادها استقطاب حادّ حرص الحاج على البقاء بمنأى عنه.

مع حلول العام ١٩٥٦ بدأ الحاج يركّز كتاباته على مسألة اللغة، أولى المعاضل الفلسفيّة الكبرى الّتي تناولها من ضمن ما سيُعرَف بنظامه الفلسفيّ، القائم على تعادليّة الجوهر والوجود. وهكذا صدرت له، تباعًا، مقالات عدّة حول هذا الموضوع في مجلّة المرسلين اللبنانيّين الموارنة المنشَأة حديثًا، مجلّة **الرسالة**. ثمّ عمد إلى جمع كلّ ما كتب حول الفلسفة بعامّة، وحول اللغة، والمرأة، والتربية، والفنّ، والتعليم، والمدنيّة الحديثة، والإلحاد السارتريّ المتكابِر، في كتاب واحد عَنْوَنَه **فلسفيّات**[2]. لكنّ ضربته الكبرى، في تلك السنة، كانت إنزال كتابه **فلسفة اللغة**[3] إلى الساحة الفكريّة في أواخر العام.

مع هذا الكتاب وُلد الفيلسوف كمال يوسف الحاج ولادة مُدوّية في دنيا الفلسفة الباقية، ووُضع المدماك الأوّل لفلسفة متألّقة باللغة العربيّة عِمادُها عقلٌ من لبنان.

في نيسان ١٩٥٧، وبعد الاهتمام الكبير الذي أثاره مؤلَّف **فلسفة اللغة**، كتب الحاج مقالة خاصّة لمجلّة **الرسالة** عنوانها "**لماذا كتبْتُ فلسفة اللغة؟**"، وفيها فصّل التجارب الثلاث التي مهّدت الطريق نحو نظريّته الفلسفيّة. في هذه الفترة أيضًا بدأ يتلمّس عبقريّة فلسفيّة صرفة في كتابات أنطون سعاده. وكان قد بدأ يهتمّ قبل ذلك، منذ صيف العام ١٩٥٦، بآثار أمين الرّيحاني في بُعدها الفلسفيّ تحديدًا، ويتردّد بانتظام إلى منزل ألبرت الرَّيحاني، شقيق أمين، لاستجماع ما أمكنه من شواهد في هذا الصدد، ولاسيّما من كتاب **الريحانيّات**، الصادر حديثًا.

نستنتج ممّا تقدّم أنّ الحاج كان، طَوال تلك السنة ومنذ ذلك العهد البعيد، منهمكًا في حفر الأساسات المكينة الّتي سيشيّد عليها، بعد سنين عدّة، صرح الفلسفة اللبنانيّة الحديثة.

---

١. تُراجَع هذه الكتابات، تباعًا، في: **المؤلّفات الكاملة، المجلّد الثالث، تيّارات فلسفيّة (٢)**، ٣/ سارتر، ٣/ مذهب.

٢. ٤/ فلسفيّات.

٣. ٥/ فلسفة.

في أواخر السنة عينها زاد الحاج على صرحه الفلسفيّ فصلًا متألّقًا عندما أصدر كتابًا نظريًّا عنوانه **في القوميّة والإنسانيّة**[١]، حيث أعلن إيمانه بحركة جدليّة بين القوميّة والإنسانيّة، على غرار ما وجده سابقًا بين الفكرة والكلمة، بحيث تستوجب الواحدة الأخرى بصورة حتميّة.

من يتتبّع تسلسل كتابات الحاج تاريخيًّا يستنتج أنّه كان قد حسم، بشكل غير مباشر، قسمًا من خياره القوميّ في غضون تلك السنة بالذات (١٩٥٧)، عندما أقصى إمكانيّة اعتماد نظريّة أنطون سعاده في القوميّة السوريّة الاجتماعيّة كأحد الحلول الممكنة. فقد صدرت للحاج في تلك السنة مقالة تحت عنوان "**سعاده ذلك المجهول**"، حيث أثنى بوضوح على شخصيّة سعاده الفكريّة، ولكن مع الإهداء المُعبّر الآتي: "**مُهداة إلى الّذين لست منهم... علّهم يُدْرِكون غَور مداه**"[٢].

تجدر الإشارة، أخيرًا، إلى أنّ العام ١٩٥٧ تميّز بظهور بعض الكتابات الفلسفيّة العامّة حول الله والإلحاد، وحول التربية، وحول الثلاثيّ اليونانيّ الخالد[٣]. وعلى الصعيد الشخصيّ والعائليّ، قضى الحاج أوّل عطلة صيفيّة في ربوع الشبانيّة، بعد أن كان قد تركها منذ سفره إلى فرنسا عام ١٩٤٦.

تميّز العام ١٩٥٨ بظهور أوّل كتاب يستعرض فيه الحاج "نظامه الفلسفيّ"، أي الفكرة المحوريّة الجامعة بين مختلف موضوعاته الفلسفيّة، والمستلّة منطقيًّا من معالجته لمعضلتَي اللغة والقوميّة: فكرة التعادل والتكامل بين الجوهر والوجود. وقد صدر هذا الكتاب تحت عنوان **من الجوهر إلى الوجود أو من ديكارت إلى سارتر**[٤].

قبل أن تندلع أحداث العام ١٩٥٨، كتب الحاج مقالة عنوانها **في الحرّيّة**[٥]، وأخرى حول **سعاده الفيلسوف**[٦]. ومع تأجّج أحداث ١٩٥٨ قرّر آل الحاج، استثنائيًّا، الاصطياف في بكفيّا بدلًا من الشبانيّة، لأنّ ماغي كانت حاملًا في شهرها السابع. واستمرّت الأحداث على تأزّمها طوال فصل الصيف، فاضطُرّت أمّ يوسف إلى مغادرة بكفيّا في ظروف عصيبة، ووجهتها مستشفى رزق في بيروت، لوضع مولودها الثاني، سامي، في ٢٦ أيلول ١٩٥٨. في هذه الأثناء كان الرأي قد استقرّ بين الزوجين على شراء دارة محيي الدين بيهم القائمة في ضهور الشبانيّة، في المحلّة المسمّاة "عين بِعْنان"، لتصبح مصيف العائلة النهائيّ، فتمّت الصفقة في ٥ كانون الثاني ١٩٥٨.

---

١. ٧/ إنسانيّة.

٢. ١٠/ مجهول.

٣. تُراجَع هذه الأعمال، تباعًا، في: ٤/ عبث، ٤/ الله، ٤/ عرب، ٤/ تربية، ٤/ إسلام، ٤/ سقراط، ٤/ أفلاطون، ٤/ أرسطو.

٤. ٦/ جوهر.

٥. ٤/ الحرّيّة.

٦. ١٠/ سعاده.

بعد خمود نار الثورة بدأ الحاج يقترب أكثر فأكثر من جواب نهائيّ عن معضلة لبنان القوميّة. وقد قدَّم، في حديث أدلى به لجريدة **الصحافة** في ١٦ تشرين الثاني ١٩٥٨، بعض عناصر هذا الجواب[١]. فمن جهة أقصى خيار القوميّة السوريّة، لأنّها تُغلّب عنصر الجغرافيا في تحديدها للقوميّة، فيما العناصر الأربعة الّتي تتألّف منها القوميّة، أي الأرض والاقتصاد والتاريخ واللغة، هي عند الحاج "**متعادلة في العظمة والكرامة لأنّها تنبثق من صلب الحياة**". ومن جهة أخرى رأى أنّ مفهومه الفلسفيّ للقوميّة يجعله يدين ""**بعروبة واقعيّة" لا تتناقض مع الحفاظ على كيان لبنان**"[٢]. بهذه الكلمات خطا الحاج خطوة مهمّة نحو التوصّل إلى ما سيصبح عنده، بعد فترة قريبة، الحلّ النهائيّ لمعضلة لبنان القوميّة، وهو حلّ ذو وجهين: القوميّة اللبنانيّة والأمّة العربيّة.

شكّل العام ١٩٥٩ نقطة تحوّل في مسار الحاج. ففي تلك السنة بذل نشاطًا تأليفيًّا مكثّفًا توزّع على كتابين، ومحاضرة، ومقالتين، ومقدّمتي كتابين، وطائفة من الأحاديث الصحافيّة، وجلّها مَفصِليّ الطروحات.

في الكتاب الأوّل، وهوبحث نظريّ ثانٍ حول مفهومَي القوميّة والإنسانيّة تحت عنوان **القوميّة ليست مرحلة**[٣]، أكّد الحاج أنّ القوميّة ليست مرحلة مؤقّتة ستتخطّاها البشريّة بحكم تنافيها مع الإنسانيّة، ولا هي، في المقابل، مرادفة للعنصريّة. الحرّيّة هي غاية القوميّة. أمّا الكتاب الثاني، وهو بعنوان **دفاعًا عن اللغة العربيّة**[٤]، فمجموعة من المقالات والمحاضرات التي تتمحور حول كيفيّة المصاهرة بين أصيل اللغة العربيّة ودخيل اللغات الأجنبيّة على أرض لبنان من دون إقحام الدين والسياسة في الشأن اللغويّ.

على صعيد آخر، دارت المحاضرة والمقالتان على مواضيع تتّصل بالطائفيّة البنّاءة، وكلّها تنادي بالتمييز بين الطائفيّة والإقطاعيّة، بحيث إنّ ما يُنْسَب عشوائيًّا إلى الأولى من مضارّ ينبغي أن يقع على الثانية. أمّا إلغاء الطائفيّة، أي إلغاء الدين معيوشًا في المجتمع، فهو بمثابة إلغاء للدين، وهذا سيعني زوال لبنان. لذا رفض الحاج اللاطائفيّة المعمَّمَة، ولم يرَ مانعًا من أن يبقى لبنان "**جمهوريّة أديان متّحدة**"[٥]. وقد أصرّ، من جديد، على كلّ هذه النقاط في سياق مناظرة طويلة قامت على مدى شهرين (أيلول– تشرين الأوّل ١٩٥٩) بينه وبين المحامي الاشتراكيّ الشابّ شكيب جابر على صفحات جريدة **الأنباء**، لسان حال الحزب التقدّمي الاشتراكيّ اللبنانيّ[٦].

١. ١٣/ أدين.
٢. ١٣/ أدين.
٣. ٧/ مرحلة.
٤. ٥/ دفاع.
٥. ٨/ نهائيّ/ ١٣.
٦. ٨/ جابر١ إلى ٨/ جابر /٣.

في هذه السنة الحافلة (١٩٥٩) نجد أيضًا مقدّمتين بقلم الحاج، الأولى لمحاضرة الفيلسوف الألمانيّ كارل ياسبرس حول **القنبلة الذرّيّة ومصير الإنسان**[١]، والثانية لمسرحيّة صلاح كامل بعنوان **الهاوية**[٢]. أُولى المقدّمتين هي الأهمّ بأشواط، لأنّها تُظهّر دور الفيلسوف في التزام معاضل مجتمعه. أمّا الأحاديث الصحافيّة التي أدلى بها الحاج في تلك السنة، فلها أهميّة محوريّة في مساره الفكريّ. وأهمّ ما فيها هو التمييز، للمرّة الأولى في آثاره، بين مفهومَي القوميّة والأمّة، والقول بالقوميّة اللبنانيّة والأمّة العربيّة كجناحين لحقيقة لبنان السياسيّة والحضاريّة، الأولى بصفتها وَحدة سياسيّة جغرافيّة ناجزة، والثانية بصفتها قِوامًا لسانيًّا. ولا يكتفي الحاج، في هذه الأحاديث، بإعلان وجود القوميّة اللبنانيّة بناء على براهين عقليّة دامغة، بل يُجهِر إيمانه بها والتزامه النضال في سبيلها، لأنّ ثمّة تناقضًا بين قيام القوميّة العربيّة بالتزامن مع قيام القوميّة اللبنانيّة على أرض لبنان: إمّا هذه وإمّا تلك.

بإعجاب كبير طالَع أبو الاستقلال اللبنانيّ، الرئيس بشاره خليل الخوري، هذه الأحاديث للفيلسوف النابض، ولاسيّما حديثه إلى مجلّة **الشراع** في الأوّل من أيّار ١٩٥٩. ولما عرف أنّ صاحبها هو رئيس مصلحة الشؤون الثقافيّة في وزارة التربية، طلب من وزير التربية الشابّ، فؤاد بطرس، أن يجمعه بالحاج. وقد تمّ اللقاء المرتجى بين أبي الميثاق الوطنيّ وفيلسوف القوميّة اللبنانيّة أواخر العام ١٩٥٩، في دارة الخوري في الكسليك، وتبعته "**بعض الجلسات الخاصّة**"[٣] مع الرئيس الشيخ. وكان تمنّ ملحّ من الخوري أن يؤلّف الحاج كتابًا في فلسفة الميثاق الوطنيّ، فردّ الحاج بأنّه يتلمّس الطريق إلى ذلك، خصوصًا بعد ثورة ١٩٥٨ التي طرحت كلّ علامات الاستفهام الفلسفيّة الممكنة حول هوّيّة لبنان، فباتت تتطلّب إجابات واضحة.

أخيرًا شهد العام ١٩٥٩ إطلاق مبادرة تربويّة جريئة على يد الحاج، إذ راح يعطي، في بعض المدارس الثانويّة، محاضرات توجيهيّة لتلامذة صفوف الفلسفة في السنوات النهائيّة، حيث كان يسدّد تفكيرهم نحو القوميّة اللبنانيّة والطائفيّة عن طريق البحث والتحليل الفلسفيّين. ونعرف، من هذه المدارس، معهد الرسل في جونيه للآباء المرسلين اللبنانيّين الموارنة (الكُرَيميّين)، ومدرسة الحكمة في الأشرفيّة (بيروت)[٤].

في ١٤ آذار ١٩٦٠ صدر المرسوم الجمهوريّ ٣٥٢٧ القاضي بنقل الدكتور كمال الحاج إلى ملاك الجامعة اللبنانيّة الفنّيّ (كلّيّة الآداب) برتبة وراتب أستاذ مساعد للتعليم العالي، فانطوت بذلك حقبة مسؤوليّات الحاج الإداريّة في وزارة التربية الوطنيّة والفنون

١. ٤/ سياسة.

٢. ١٣/ كامل.

٣. ٨/ ميثاق/ ٦٤٧.

٤. [أفادنا بمعلومة تولّي الحاج تدريس الفلسفة في مدرسة الحكمة المراقب أوّل المتقاعد في إدارة الجمارك اللبنانيّة، السيّد أنطوان نعمة الله بشارة مكرزل من بلدة الكحاله. فهو من خرّيجي هذه المدرسة، حيث أنهى المرحلة الثانويّة في العام الدراسيّ ١٩٦١-١٩٦٢. وكان قد تابع، مع الحاج، هذه المحاضرات التوجيهيّة في صفّ الثانويّ الثالث – فرع الفلسفة طَوال ذاك العام الدراسيّ، بمعدّل حصّة تدريسيّة واحدة في الأسبوع. وكانت هذه المحاضرات تُعطى تحت عنوان **فلسفة تطبيقيّة أو عمليّة**، وتندرج خارج النصاب التدريسيّ المخصَّص لمادّة تاريخ الفلسفة العربيّة، المقرّرة في صلب المنهاج الدراسيّ. كما أفادنا أيضًا بأنّ مجاذبات شديدة كانت تدور بين الحاج وبعض الطلّاب من ذوي التوجّهات العقائديّة المناهِضة].

الجميلة. وفي ٣ أيّار باشر فيلسوف الميثاق الوطنيّ مهامّه رسميًّا كأستاذ للفلسفة في ملاك كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، ومعه تأسّس قسم الفلسفة في هذه الكلّيّة بعد فترة وجيزة. وقد انطلق عمليًّا، أغلب الظنّ، مع حلول العام الأكاديميّ ١٩٦٠-١٩٦١.

بسبب أعباء الانتقال اللوجستيّ من مركز إلى آخر لم يشهد العام ١٩٦٠، في مسيرة الحاج الفكريّة، نشاطًا كتابيًّا كثيفًا كذاك الّذي تجلّى في العام السابق. وأبرز مؤلّفات الحاج في هذه السنة محاضرته الثانية (والأولى له بالعربيّة) من على منبر **الندوة اللبنانيّة**، في ٨ شباط ١٩٦٠، تحت عنوان **الطائفيّة البنّاءة**[١]. هنا أيضًا استهلّ كلامه، كالعادة، بشهادة مدوّية ما زال صداها يترجّع في الأذهان، فأعلن بلا مواربة: "**لقد جئت لأقول، وبرصانة، إنّ إلغاء الطائفيّة جريمة نرتكبها حيال لبنان، بل حيال العروبة. جئت لأقول بصراحة، وبصوت عالٍ، واقتناع مسؤول: أنا طائفيّ. لا تلغوا الطائفيّة، وإلّا زال لبنان، وزالت العروبة معه!**"[٢].

كان لهذه المقاربة الفلسفيّة الفذّة وقع الصاعقة في نفوس الحاضرين، لأنّ النظرة الشائعة كانت تقول – ولا تزال – إنّ الطائفيّة هي مصيبة المصائب في لبنان، وإنّ إلغاءها سيكون بمثابة عصا سحريّة تتلاشى معها مشاكل البلاد بلمسة واحدة.

ترك الحاج أفكاره حول الطائفية تعتمل في النفوس والضمائر، وانصرف إلى عمله الكبير الثاني في دنيا الترجمة: نَقْل **التأمّلات الميتافيزيقيّة** لرنيه ديكارت من صيغتها الفرنسيّة إلى العربيّة. كما انصرف، في الآن عينه، إلى إعادة النظر في كتابه السابق حول **رنيه ديكارت أبو الفلسفة الحديثة**، مشذّبًا إيّاه ومنقّحًا في مواضع عدّة ليتسنّى له إصداره، في كانون الثاني ١٩٦١، تحت عنوان **مدخل إلى فلسفة ديكارت**[٣]، بالتزامن مع إصدار ترجمة **التأمّلات الميتافيزيقيّة**[٤]. وقد نشر الحاج الكتابين ضمن سلسلة فلسفيّة جديدة افتتحها بالتعاون مع دار عويدات، الجهة الناشرة، تحت اسم **المكتبة الفلسفيّة**. وفي بحر تلك السنة صدرت له بعض المقالات والأحاديث الصحافيّة حول اللغة والطائفيّة والقوميّة اللبنانيّة. ومساء الثامن من أيّار اعتلى منبر **الندوة اللبنانيّة**، للمرّة الثالثة والأخيرة، كي يلقي محاضرة مدوّية عنوانها **١٩٤٣: تاريخٌ– مفترقٌ**[٥]. في هذه المناسبة سدّد الفيلسوف دَينه الفكريّ الذي كان قد استلفه من قرّائه عام ١٩٥٧، فكتب: "**وَجَب عليّ ان أعيّن القوميّة الّتي انتهيت إليها، كما وعدت به في كتابي "في القوميّة والإنسانيّة". وها إنّني أعلنها أمامكم اليوم: إنّها القوميّة اللبنانيّة**"[٦].

١. ٨/ بنّاءة.
٢. ٨/ بنّاءة/٢.
٣. ٣/ ديكارت.
٤. ٣/ تأمّلات.
٥. ٧/ مفترق.
٦. ٧/ مفترق/ ١٠.

في هذه المحاضرة تخطّى الحاج، للمرّة الأولى في تاريخ الفكر اللبنانيّ، النظرة الضيّقة إلى الميثاق الوطنيّ كتسوية إداريّة، أو كاتفاق سياسيّ، ليستجليَ رأسًا أبعاده الفلسفيّة الكبرى. فالميثاق، في رؤيا الحاج، هو قاعدة حضاريّة تُظهّر رسالة لبنان التآلفيّة بين المسيحيّة والإسلام، بل تنقذ العروبة ذاتها من الاندحار. الميثاق هو نظرة لبنانيّة شاملة في الوجود.

يبقى الحدث الأكبر في تلك السنة (١٩٦١)، وأحد أهمّ الأحداث في مسيرة الحاج الفلسفيّة. إنّه صدور كتابه المرجعيّ **الطائفيّة البنّاءة أو فلسفة الميثاق الوطنيّ**[١] بعد مُضيّ أيّام قليلة على إلقاء محاضرته في **الندوة اللبنانيّة**. لقد أظهر الحاج، في هذا المؤلَّف، المغزى الفلسفيّ، لا المبتذَل، للميثاق الوطنيّ، فكتب يقول: "**قوام الميثاق لبنانٌ طائفيّ يجمع بين دينين كبيرين تحت جناح أخوّة روحانيّة سامية... النَصْلاميّة. فإذا زالت الطائفيّة زال الدين، وزالت من ثَمّ نظرة دينيّة في الوجود هي التي تكوّن عظمة الرسالة اللبنانيّة**"[٢]. هنا تبرز، من شقّ يراع الحاج، كلمة جديدة من نحته: "النَصْلاميّة". إنّها تُفيد التناغم الحضاريّ المستدام بين النصرانيّة والإسلام على أرض لبنان، لكنّها تختزن أيضًا، على مستوى آخر، الجمع بين النصرانيّة والإسلام لخوض المعركة المصيريّة ضدّ الصِهْيَونيّة، المنقضّة على المسيح والقرآن معًا لتكذيبهما باسم مسيح اليهوديّة المنتظَر.

بذلك اختتم كمال يوسف الحاج عهده الفلسفيّ الأوّل (١٩٥٠– ١٩٦١)، فحطّ الرِحال، في منتهاه، على القوميّة اللبنانيّة عقيدة لوطن الأرز، وعلى الميثاقيّة النَصْلاميّة رسالة له، بعد أن انطلق، في مبتدإه، من تذاوب الفكرة والكلمة، ومن تكامل الإنسانيّة والقوميّة، في ضوء أنظومة نظريّة عليا تكشّفت له تدريجيًّا: تعادليّة الجوهر والوجود.

"عبور الصحراء" والعهد الفلسفيّ الثاني (١٩٦٢– ١٩٧١)

وفجأة همد "البركان". مرّت سنة ونصف السنة دون أن يتحلّب قلم الحاج بكلمة: من منتصف العام ١٩٦١ حتّى نهاية العام ١٩٦٢. صحيح أنّ الله رزقه، في هذه الأثناء، اثنين من أولاده – ابنه الثالث أنطوان في ٢٣ تشرين الأوّل ١٩٦١، وابنته الوحيدة جانين في ٨ تشرين الثاني١٩٦٢– لكنّ المشاغل العائليّة لم تكن هي السبب بالتأكيد. ما دفعه، حقًّا، إلى هذا الاحتجاب الجزئيّ هو شعوره بضرورة الانطواء على ذاته لتبيان نهجه المقبل بوضوح أكبر، ومن ثَمّ وجوب اعتماد الصوغ الفلسفيّ المُحكَم على حساب طلاوة الأسلوب الأدبيّ. أضفْ إلى ذلك حدّة الانتقادات الّتي انهالت عليه، الأمر الّذي أسهم، ثانويًّا، في حمله على هذا الاحتجاب. هنا تساءل صديقه ميشال أسمر بحيرة: هل يكون الحاج قد قال كلّ ما يريد، ثمّ أسدل الستار على حكاية الفلسفة عنده؟ لذا كتب بقلق كبير، وبشيء من المبالغة: "**وكان انقطاعه، منذ العام ١٩٦١، عن كلّ تظاهرة كتابيّة علنيّة، وكانت جلستي معه في غروب**

١. ٨/ ميثاق.
٢. ٨/ ميثاق/ ٥٦٨.

صيف ١٩٦٦"[١]. وبناء على تساؤلات أسمر كتب الحاج، في ٢٥ كانون الثاني ١٩٦٦، رسالة جوابيّة توضيحيّة إلى صديقه تحت عنوان **في غرّة الحقيقة**[٢]، حيث عرض لا مراحل تكوّن فلسفته حتّى الزمن الحاضر فحسب، بل صروحها الآتية.

تميّز هذا العهد الفلسفيّ الثاني ببروز أُفهومة الفلسفة اللبنانيّة للمرّة الأولى في كتابات الحاج، فارتسم خطّ جديد في حياته الفكريّة، بل في حياة لبنان الفكريّة. والواقع أنّ طلائع الفلسفة اللبنانيّة كانت قد ظهرت في الحقبة الآنفة الذكر (١٩٦٢– ١٩٦٥)، وذلك بين طيّات مقالاته ومحاضراته حول أمين الرّيحاني وشبلي الشميّل، ثمّ حول ارتباط الفلسفة اللبنانيّة ارتباطًا عضويًّا بالقوميّة اللبنانيّة، وأخيرًا حول تَمَرْحُل الفلسفة اللبنانيّة الحديثة عبر العصور انطلاقًا من قيام المدرسة المارونيّة في روما عام ١٥٨٤.

بعد الرسالة التوضيحيّة إلى ميشال أسمر أقدم الحاج على سابقة مفصليّة في حياته الفكريّة: تدشين دروس جامعيّة منتظمة حول الفلسفة اللبنانيّة في جامعة الروح القدس – الكسليك، وهي دروس ستمتدّ على مدى سنة أكاديميّة كاملة (١٩٦٦– ١٩٦٧)[٣].

كانت هذه السلسلة من الدروس مبادرة منقطعة النظير في الفضاء التربويّ اللبنانيّ. افتتحها الحاج وهو واعٍ تمامًا لجدّة الموضوع، ووعورته، وخروجه على كلّ مألوف. وعرف، منذ اللحظة الأولى، أنّ هذه الجبهة الفلسفيّة ستكون الأوعر مرتقًى، والأبعد قطافًا، لأنّها أصعب جواب عن أخطر سؤال طرحه على نفسه: كيف نُلَبْنِن الفلسفة لنفلسف لبنان؟ بكلام آخر: كيف نزاول الأفعول الفلسفيّ لجَبْه معاضلنا المصيريّة؟ أثمّة أسانيد تاريخيّة لهذا الجَبْه الفلسفيّ اللبنانيّ عبر العصور؟ أثمّة فلسفة لبنانيّة؟

ستظلّ تلك الأسئلة الفكريّة المصيريّة مُلاحِفَةً لكمال يوسف الحاج حتّى الرمق الأخير، مؤرّقةً مضجعه، مستحِثّةً عبقريّته. لكنّ العام ١٩٦٧ حمل أيضًا، في طيّاته، تحوّلات كبيرة أبعدته، لفترة، عن التفرّغ لمبحث الفلسفة اللبنانيّة، ولده الفلسفيّ المدلَّل. وفي طليعة هذه التحوّلات انصرافه إلى إعداد أُولى محاضراته حول بكركي، وقد ألقاها في ١٩ شباط ١٩٦٧ تحت عنوان بات اليوم من المأثورات الكمْحَجيّة: **بكركي صخرة الخلاص**[٤]. في هذه المحاضرة ظهَّر فيها جلال الميراث الدينيّ، وعِظَمَ شأنه في تكوين الذات اللبنانيّة، عن طريق تظهير دور المقام البطريركيّ الماروني في الروحيّات والزمنيّات، لخير مسيحيّي لبنان كما لخير مسلميه، ولنهضة لبنان كما لرفعة العروبة.

للمرّة الأولى يحامي قلم عِلمانيّ من لبنان، بوضوح فلسفيّ ناصع، عن ريادة بكركي في ضمان ديمومة الميثاق الوطنيّ، وفي تجسيد جوهر الذات اللبنانيّة. لا عَجَب، إذًا، من أن تقع هذه المحاضرة موقعًا جليلًا في نفس البطريرك الماروني مار بولس بطرس المعوشي. وللحال

---

١. راجع تمهيد الناشر للمؤلَّف ٦/ غرّة. في الحقيقة صدرت للحاج أعمال عديدة في هذه المرحلة، ولكن ليس بالغزارة التأليفيّة المعهودة عنده. هذه الأعمال منشورة في المواضع الآتية من مجموعة مؤلّفاته الكاملة: ٥/ ازدواج، ١٠/ الريحاني، ٧/ كيان، ١٠/ مبرّر، ١٠/ أمين، ١٣/ كينيدي، ٧/ تنشئة، ١٠/ حديثة، ١٠/ نشوء، ١٠/ عقل، ٧/ لبنانيّة، ١٠/ الفيلسوف.

٢. ٦/ غرّة.

٣. ١٠/ تدشينيّ.

٤. حول طبيعة هذه التحوّلات، وأسبابها المُوجِبَة، يُراجَع تمهيد الناشر للمؤلَّف ١٢/ خلاص، وتمهيده للمؤلَّف ١٣/ أَقْمَحَ.

أرسل صاحب الغبطة يطلب التعرُّف إلى واضعها. مذ ذاك رسخت بين السيّد البطريرك والحاج صداقة قلّ نظيرها في العمق والمتانة بين علمانيّ ورأس كنيسته، وصار الحاج، في يقين المعوشي، "**بول كلوديل الشرق**"، كما جاهر غبطته بذلك غير مرّة.

تمنّى المعوشي على صديقه الجديد أن ينشر أفكاره على صفحات جريدة **نداء الوطن** لصاحبها الياس الغرياقي، وكانت من كبريات الصحف اللبنانيّة آنذاك، وناطقة شبه رسميّة بلسان البطريركيّة المارونيّة. فاستجاب الحاج، وراحت افتتاحيّاته تتوالى فيها منذ أواخر آذار ١٩٦٧، فظهرت له سبع وخمسون مقالة بين ٢٥ آذار و٢٠ تمّوز ١٩٦٧، ومقالتان في كانون الثاني ١٩٦٨[١]. وعند اندلاع حرب الأيّام الستّة في تلك الفترة (٥ حزيران ١٩٦٧)، ثمّ احتلال إسرائيل لمدينة القدس بكاملها، بدأت تظهر أولى مقالات الحاج المكرَّسة للقضيّة الفلسطينيّة في جميع جوانبها الفكريّة والحضاريّة والدينيّة والسياسيّة. ثمّ بدأ الفيلسوف، بعد شهر تقريبًا، يحبّر سلسلة مقالات متخصّصة حول الفلسفة الصِهْيَونيّة في جريدة **الحياة**، من ٢٣ آب إلى ١٤ تشرين الأوّل ١٩٦٧. وقد شكّلت مادّة هذه المقالات باكورةَ كتبه حول القضيّة الفلسطينيّة، وعنوانه **حول فلسفة الصِهْيَونيّة**[٢].

لم يكتفِ الحاج، عام ١٩٦٧، بهذا النشاط الصحافيّ المكثَّف. فقد أصدرت له صحيفة **نداء الوطن** نصّ محاضرة ألقاها بين جدران دار المعلّمين العليا، في ٧ نيسان ١٩٦٧، بعنوان **إطلالة فلسفيّة على القوميّة اللبنانيّة**[٣]. وعلى صعيد آخر شهدت تلك السنة صدور المرسوم الجمهوريّ رقم ٧٩٧٤، تاريخ ١١ آب ١٩٦٧، الذي قضى بترقية الحاج، هو والمؤرّخة زاهية قدّورة، من رتبة أستاذ مساعد إلى رتبة أستاذ في ملاك كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة في الجامعة اللبنانيّة، فغدا أوّل الحائزين على هذه الرتبة الجامعيّة في الكلّيّة، وأرفع الأساتذة رتبة وراتبًا.

مع حلول شهر شباط من العام ١٩٦٨ أصدر الحاج أوّل مقالة تعريفيّة باللغة العربيّة حول بنيانيّة كلود ليڤي- ستروس. وعَنْوَنَ **ملحق النهار**، الجهة الناشرة للمقالة: "**كمال الحاج يخترع كلمة ويقدّم فلسفة**"[٤]. الكلمة المخْتَرَعة هنا هي "البنيانيّة"، وقد شاءها الحاج مقابلًا عربيًّا للفظة structuralisme، أي مذهب ليڤي- ستروس.

في ٢٨ آذار ١٩٦٨ ألقى الحاج باكورة محاضراته حول حضور المسيح في التاريخ، وكانت في معهد الرسل (جونيه) وتحت عنوان **المسيح في التاريخ**. وبعد مضيّ أقلّ من شهرين عاد إلى المكان عينه ليحاضر، في السياق ذاته، حول **الصِهْيَوْنيّة بين المسيح والقرآن**[٥]. وفي صيف ذاك العام ألقى في حمّانا محاضرته **قلق الإنسان في القرن العشرين**[٦]، مباشرة بعد ثورة الطلّاب المعروفة في

١. نُشرت هذه المقالات في **المجلّد الثالث عشر** من المؤلّفات الكاملة، مع رمزخاصّ بكلّ منها، في فصل مستقلّ تحت عنوان "**مقالات نداء الوطن**".

٢. ٩/ صِهْيَونيّة.

٣. ٧/ إطلالة.

٤. ١٣/ بنيانيّة، راجع أيضًا تمهيد الناشر لهذا المؤلّف.

٥. ١٢/ تاريخ، ٩/ قرآن.

٦. ١٢/ قلق.

فرنسا، المندَلِعة في أيّار والممتدّة عبر أوروبّا إلى لبنان، حيث راح بعض الطلّاب ينادي بتغيير النظام بوسائل عنفيّة على وقع صيحات زملائهم الفرنسيّين. وانتاب الشعوبَ قلقٌ عالميّ من هذه الظاهرة، مع ما صاحَبَها من تسييس واضح للمطالب الطالبيّة لصالح الأفكار الإلحاديّة، ومن استغلال لزخم هذا التحرّك في اتّجاه المناداة بالإباحيّة الأخلاقيّة.

كان العام ١٩٦٩، في مسيرة كمال يوسف الحاج الفكريّة، عام المحاضرات بامتياز (إحدى عشرة محاضرة). ففي ٩ آذار منه ألقى، ضمن سلسلة نظّمتها جامعة الروح القدس – الكسليك، إحدى أقوى محاضراته في مسألة الطائفيّة الميثاقيّة البنّاءة تحت عنوان **أبعاد الطائفيّة في لبنان والعالم العربيّ**[١]. وفي ٢٦ نيسان، بُعَيْدَ اندلاع أزمة الأشهر السبعة[٢]، عاد إلى موضوع المسيح، فحاضَرَ حول **المسيح بين القوميّة والاشتراكيّة**[٣]. وفي ٦ حزيران حاضر حول **لبنان مبنى ومعنى**[٤]. وفي تمّوز– آب، مع اشتداد أزمة الأشهر السبعة، ضرب الحاج ضربته الكبرى، فألقى سلسلة من أربع محاضرات في حمّانا تحت عنوان معبّر واحد: **لبنان في اللهب... هل يحترق؟**[٥]. وبين المحاضرتين الأولى والثانية من هذه السلسلة جاءت محاضرة **المسيح في وجه الإلحاد المعاصر**[٦] مساء السابع والعشرين من تمّوز، وقد استهلّها الفيلسوف بفعل إيمان رائع بالمسيح الكونيّ، لا بالمسيح التاريخيّ فحسب. وبين المحاضرتين الثانية والثالثة من السلسلة عينها وجد الفيلسوف متّسعًا من الوقت ليحاضر في بشرّي حول **لبنان بين إسرائيل والصِهْيَونيّة**[٧]. وبعد الانتهاء من رباعيّة محاضرات حمّانا قصد الحاج بكفيّا، في ١٤ أيلول، لإلقاء محاضرة بعنوان **الطالب والقوميّة اللبنانيّة**[٨]. أمّا مسك ختام هذه السلسلة فكان محاضرة **المسيح ولبنان**[٩] في ٢ كانون الأوّل.

بعد عام ١٩٦٩، الغنيّ بالمؤلَّفات، شهد العام ١٩٧٠ نوعًا من اللملمة الفكريّة في مسيرة الحاج. في تلك السنة بدأ الحاج نشاطه بتدبيج ردّ على كتاب **نقد الفكر الدينيّ** لصادق جلال العظم نزولًا عند رغبة صديقه القديم سماحة مفتي الجمهوريّة اللبنانيّة الشيخ حسن خالد[١٠]، قبل أن يشارك في سلسلة نظّمتها جامعة الروح القدس–الكسليك تحت عنوان **أبعاد القوميّة اللبنانيّة**، وذلك عبر

---

١. ٨/ أبعاد.

٢. هي الأزمة التي شهدها لبنان بعد استقالة رئيس الحكومة اللبنانيّ رشيد كرامي من منصبه، في ٢٤ نيسان ١٩٦٩، احتجاجًا على الاشتباك الذي وقع بين قوى الأمن ومناوئين انضمّوا، في اليوم السابق، إلى تظاهرة مؤيّدة للوجود الفلسطينيّ المسلّح في لبنان بدعوة من الأحزاب اليساريّة. وقد استمرّت تلك الأزمة طَوال سبعة أشهر تعطّلت خلالها عمليّة تأليف حكومة، ثمّ انفرجت بعد توقيع ما عُرف باسم **اتّفاقيّة القاهرة** في ٣ تشرين الثاني ١٩٦٩. لكنّ هذه الاتّفاقيّة زجّت لبنان في أتّون مواجهات مسلّحة طويلة وبالغة العنف، إلى أن ألغاها البرلمان اللبنانيّ في ٢١ أيّار ١٩٨٧.

٣. ١٢/ اشتراكيّة.

٤. ٧/ مبنى.

٥. ٧/ لهب.

٦. ١٢/ إلحاد.

٧. ٩/ إسرائيل.

٨. ٧/ طالب.

٩. ١٢/ لبنان.

١٠. ١٣/ العظم.

محاضرة مدوّية ألقاها في منتصف شباط تحت عنوان **قوميّات إزاء القوميّة اللبنانيّة**[١]. وفي نيسان من ذاك العام دفع بأولى دراساته إلى مجلّة **القضايا المعاصرة**[٢]، وكانت بعنوان **ماركس وعقدة المسيح**[٣]. وفي الثامن من أيّار تولّى، بالوكالة، عمادة كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة في الجامعة اللبنانيّة خلفًا للدكتور أحمد مكّي، بعد أن انتهت فترة عمادة الأخير في هذا التاريخ من دون أن يتّفق ذوو الشأن على تعيين بديل أصيل له.

استمرّ الحاج في تولّي منصب العمادة (بالوكالة) طَوال ما تبقّى من العام ١٩٧٠. وفي هذه الأثناء أنهى دراسته الأكثر استفاضة حول الفلسفة اللبنانيّة، فأرسلها إلى مجلّة **القضايا المعاصرة** في كانون الأوّل ١٩٧٠ تحت عنوان **الفلسفة اللبنانيّة: مدخل إلى تاريخها**[٤]. مع هذه الدراسة تمّم الفيلسوف، للمرّة الأولى، الأرضيّة المكينة الّتي سيرتكز عليها، مستقبلًا، كي ينجز تأليف كتابه المرجعيّ **موجز الفَلْسَفة اللبنانيّة** (كذا)، الذي سيصدر عام ١٩٧٤.

حمل العام ١٩٧١، في بداياته، تحرّكًا طالبيًّا مكثّفًا لتحقيق عدّة مطالب على مستوى جميع الكلّيّات (بينها تعيين عميدَين أصيلَين لكلّيّتَي الآداب والحقوق[٥]) تحت طائلة الإضراب المفتوح. وبما أنّ المفاوضات بين الطلّاب والمسؤولين لم تصل إلى نتيجة إيجابيّة، أعلنت الهيئة التنفيذيّة لاتّحاد طلّاب الجامعة اللبنانيّة تعليق الدروس في جميع الكلّيّات ابتداءً من ٢٥ شباط ١٩٧١، ثمّ صعّدت إضرابها عبر احتلال كلّيّات الجامعة ومعاهدها في ٩ آذار من العام ذاته. وهكذا، ففي كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، توجّه عدد من مسؤولي الطلّاب إلى مكتب العميد بالوكالة الدكتور كمال الحاج، فناقشوه في مطالب اللجنة التنفيذيّة، وأبلغوه أنّ اللجنة قرّرت احتلال الكلّيّة، وأنّهم جاءوا لتسلّم مفاتيحها منه. استجاب الحاج للطلّاب من دون تردّد، وسلّمهم المفاتيح، وغادر مكتبه في الساعة الرابعة عصرًا بعدما أبدى تأييده لما تسعى اللجنة التنفيذيّة إلى تحقيقه. وتحت ضغط هذه الأحداث سارع مجلس الجامعة اللبنانيّة إلى تعيين زاهية قدّورة عميدة أصيلة للكلّيّة في ١٣ آذار ١٩٧١، ولكنّها لم تستطع تسلّم منصبها بسبب استمرار احتلال الطلّاب لمباني الكلّيّات. ولم تنفرج الأزمة إلّا في ٢٨ نيسان من العام نفسه، عندما أعاد الطلّاب تسليم المباني إلى العمداء والمديرين الأصيلين. أمّا في كلّيّة الآداب فقد جرى التسليم والتسلّم بين الطالب الياس آدم، العميد إبّان الاحتلال، وبين الدكتور الحاج، قبل أن يسلّم الحاج، بدوره، مقاليد الكلّيّة للعميدة الجديدة.

---

١. ٧/ قوميّات.

٢. كانت مجلّة مرموقة تعالج خصوصًا مواضيع الفكر السياسيّ. وقد صدرت عن **دار النهار** لسنوات قليلة قبل أن تحتجب نهائيًّا.

٣. ٣/ ماركس.

٤. ١٠/ مدخل.

٥. شغر منصب عمادة كلّيّة الحقوق بعد تعيين عميدها الأصيل، الدكتور إدمون نعيم، رئيسًا للجامعة اللبنانيّة في ٤ تشرين الثاني ١٩٧٠ خلفًا للدكتور فؤاد افرام البستاني.

في حزيران ١٩٧١ دفع الحاج بدراسة جديدة إلى مجلّة **القضايا المعاصرة** حول **دور الفلسفة في الحياة السياسيّة**[١]. وشكّلت هذه الدراسة عصارة تفكيره المكتمل حول المصاهرة "**بين واقعيّة السياسة ومثاليّة الفلسفة**"[٢]. وفي هذا العام أيضًا صدر كتابه المنهجيّ الأكمل بعنوان **بين الجوهر والوجود أو نحو فلسفة ملتزِمة**[٣]. وقد أتى هذا الكتاب المحوريّ توسيعًا وتكملة لكتابه الأوّل في المنهجيّة الفلسفيّة، أي مؤلَّفه **من الجوهر إلى الوجود أو من ديكارت إلى سارتر**[٤]، الصادر في العام ١٩٥٨.

اختتم الحاج العام ١٩٧١ بمحاضرة ألقاها في الدامور بعنوان **لبنان ذلك المجهول**[٥] في ١٢ كانون الأوّل . كانت مناسبة المحاضرة الردّ على حديث أدلى به معمَّر القذافي، رئيس مجلس الثورة الليبيّ، وتجنّى فيه على لبنان عبر تعييره بلفظة "الكلب" بعد أن اتّهمه بمحاولة القضاء على الشاة (الفصائل الفلسطينيّة المسلّحة) بالتواطؤ مع الذئب (المملكة الأردنيّة الهاشميّة) لتقاسم أشلائها، وذلك على خلفيّة هرب القيادة العليا لمنظمّة التحرير الفلسطينيّة من عمّان إلى بيروت بعد المعارك المعروفة باسم **أيلول الأسود** بين الجيش الأردنيّ ومسلّحي منظّمة التحرير الفلسطينيّة (أيلول ١٩٧٠– تمّوز ١٩٧١)[٦].

لن تمرّ هذه المحاضرة بسلام، رغم نبل ردّ الحاج، بل ستسفر عن تداعيات مأساويّة على حياة الفيلسوف الشخصيّة لاحقًا. فقد شرع النظام الليبيّ، منذ ذلك الحين، يجنّد الأبواق ضدّه بضراوة، ولاسيّما ضدّ مجاهرته بالقوميّة اللبنانيّة، وأيضًا ضدّ مساعيه اللاحقة لإقرار الفلسفة اللبنانيّة كمادّة تدريس إلزاميّة في مناهج الفلسفة بين جدران الجامعة اللبنانيّة، وصولًا إلى التهديد بتصفيته جسديًّا. وهذا الأمر الأخير دفع بالحاج إلى كتابة تقرير سرّيّ حول التهديدات التي تلقّاها وحول الجهات التي تقف وراءها، وإلى إيداع تقريره مكتب المديريّة العامّة للأمن العامّ من قبيل الاحتراز.

على غير الصعيد الفكريّ شهد العام ١٩٧١ بداية ورشة توسيع دارة الحاج في الشبانيّة لإقامة ساحة كبيرة مبلّطة تعلوها مِصطبة، ولتشييد مذبح على اسم القدّيسة ريتا، شفيعة زوجته ماغي، على هذه المِصطبة. وتضمّنت الورشة، فوق ذلك، إنشاء سكرستيّة خاصّة في غرفة مجاورة لتوضيب اللباس والآنية واللوازم البيعيّة فيها. وكان الحاج قد استصدر إذنًا خاصًّا بتشييد هذا المذبح من راعي الأبرشية، صديقه المطران بطرس فرح.

---

١. ٤/ دور.

٢. ٤/ دور/ ٣.

٣. ٦/ ملتزِمة.

٤. ٦/ جوهر.

٥. ٧/ مجهول.

٦. راجع حديث القذافي في جريدة **النهار**، ١٦ تشرين الثاني ١٩٧١، ص ١٠. وممّا جاء فيه نقتطف ما يلي: "إنّ حكّام لبنان يتصوّرون أنّ ما جرى في الأردن قد يجري في لبنان ذات يوم. وعندنا في ليبيا مثل شعبيّ يقول: "ما عَمِلَ الذئب ما يكره الكلب". أي ما عمله الذئب لا يكرهه الكلب. الذئب ضدّ الكلب. وعندما يحاول الذئب افتراس الشاة فالمفروض في الكلب أن يدافع عن الشاة. لكن عندما تتمّ عمليّة الافتراس فإنّ الذئب يأكل ما يأكله من الشاة، والكلب يأخذ نصيبه".

مع اختتام العام ١٩٧١ أسدِل الستار على العهد الفلسفيّ الثاني في مسيرة الحاج، وهوعهد تميّز بكتابات سامقة في القوميّة اللبنانيّة، والفلسفة اللبنانيّة، والمسيح التاريخيّ والكونيّ، والصراع الأجياليّ بين النَصْلاميّة والصِهْيَونيّة.

وفاة والدته والعهد الفلسفيّ الثالث (١٩٧٢– ١٩٧٦)

في الثالثة من إصباح العام ١٩٧٢ توفّيت أديل شديد الحاج، والدة كمال، عن عمر يناهز الثمانين. كانت أمّه تقيم معه في دارته الكائنة في محلّة حرش تابت (منطقة سنّ الفيل). وقد هزّته في الصميم مشاهدة موتها بأمّ العين منذ بداية حشرجتها وحتّى تمتمات وصاياها الأخيرة. كانت والدته معبودته على الأرض، وحول اختبار وفاتها الحيّ كتب متأمّلًا: "... **راحت أمّي. وكان لا بدّ لي من أمّ. ولكن أين أجد أمًّا غيرَ أمّي تكون هي أمّي بالذات؟... أشهد أنّ الحياة بدون أمّ صحراء. بل جحيم هي. لا يوجد في العالم آلة وثيقة الصنع، سامية الغاية، مَهيبة، رهيبة، عظيمة الشأن، قويّة الشكيمة، تحتاج إليها في كلّ دور من أدوار حياتك، كقلب الأمّ.**"[١]

كانت هذه التساؤلات أُولى بوادر التحوّل الإيمانيّ الأكبر في حياته: حلول مريم العذراء في كيانه حلولًا كلّيًّا، بحيث إنّه "تَمَرْيَمَ". وقد حصل ذلك بسرعة فائقة عندما تعرّف الحاج، بُعَيد وفاة والدته، على جماعة صلويّة وروحيّة اسمها **جامعة اتّحاد القلوب بقلبَي يسوع ومريم**.

كانت هذه الجماعة قد تأسّست حول الأخت ماتيل الرياشي (١٩٢٧–٢٠٠٩)، السيّدة اللبنانيّة المُلْهَمَة، شبه الأميّة، التي اصطفتها العذراء لمكالمتها، منذ ١٩٥٦–١٩٥٧، بشكل شبه منتظم كي تبثّ الوصايا الروحيّة والتحذيرات والنبوءات عبرها. وعندما التقى الحاج بالأخت ماتيل، في مطالع العام ١٩٧٢، كان التناغم الروحيّ بينهما تامًّا، فانضمّ إلى جامعة **اتّحاد القلوب**، وأضحى "**الأخ الأكبر**" فيها، كما كنّاه أفراد **الجامعة** الباقون منذ انضمامه إلى صفوفهم. وقد لعبت الأخت ماتيل دورًا حاسمًا في "مَرْيَمَة" قلب الحاج كلّيًّا. وفوق ذلك، شاءت العذراء أن تظهر بنفسها للفيلسوف، فأصبحت سماءه الثانية، وأصبح ولدها المتولّع بها والمتكرّس لمجد ابنها[٢].

بهذه التوجّه الروحانيّ وضع الحاج دستور حياته الباقية، فصار متصوّفًا بلباس مدنيّ، ولم تعد سبحة الصلاة تفارق يده اليمنى، حتّى في حياته العامّة. وكان، قبل تَمَرْيُمِه، يحلم بإنهاء حياته في دير الكُرَيم في غوسطا،[٣] متّشحًا بالحالة المُكرَّسَة. أمّا بعد التَمَرْيُم فلم يعد يستمهل شيئًا لتحقيق هذا الحلم، إذ جلّل قلبه بروحانيّة الرهبان، و"دَيْرَن" حياته. منذ تلك اللحظة برز في مسيرته القلميّة لون جديد

١. ١٢/ شهادة/٢١– ٢٢.

٢. شهد الحاج بنفسه لهذا الظهور المبارَك، وكتب عنه. راجِع مثلًا: ١٢/ شهادة/ ٢٨– ٣٠.

٣. المركز–الأمّ لجمعيّة الآباء المرسلين اللبنانيّين الموارنة.

من الكتابات، لون "المحاضرة- العظة"،أي العظة التي تُلْقى في كنيسة، من أمام مذبح الربّ، بصيغة محاضرة. وقد بدأ الحاج بإلقاء المحاضرات-العظات[١] تباعًا منذ العام ١٩٧٢، بعد أن التمس إذنًا خاصًّا بذلك من صديقه غبطة البطريرك المعوشي، فكان له ما أراد.

إلى جانب الشهادة للحقائق المسيحيّة الكبرى عبر محاضرات-عظات، تعاظم في حياته، حتّى الهيام، شغف بتحقيق مهمّة مصيريّة أخرى: كشف الغطاء عن الفلسفة اللبنانيّة بغية إرسائها في المناهج الدراسيّة، الجامعيّة منها فالمدرسيّة الثانويّة. ويمكن القول، بيقين كامل، إنّ كلّ حياته بعد ١٩٧٢ غدت مسكونة بهذين الهاجسين. لذا جاءت الأغلبيّة الساحقة من مؤلَّفاته، منذ ذلك العام- المُفترَق، منذورة لهذين العالَمَين.

صدرت للحاج، في رأس العام ١٩٧٢، مقالة حول الطائفيّة البنّاءة تحت عنوان **لماذا أنا طائفيّ... ولماذا سأبقى**[٢]، وبها ختم على كتاباته في هذا الباب. ثمّ دفع إلى مجلّة **القضايا المعاصرة**، في كانون الثاني من العام نفسه، بدراسة مستفيضة عن نظريّته في القوميّة والأمّة تحت عنوان **أمّتي عربيّة... قوميّتي لبنانيّة**[٣]، وبها ختم أيضًا على كتاباته في هذا الباب. ثمّ كتب مقدَّمتين لمؤلَّفين وضعهما صديقان غاليان على قلبه، الأولى لكتاب **لبنان في قيم تاريخه**[٤] بقلم أحد أعلم طلّابه، مؤرّخ الحضارات يوسف الحوراني، والثانية لمسرحيّة **الغزالي حجّة الإسلام**[٥] بقلم أحد أكثر زملائه إخلاصًا، العلّامة فكتور الكك. ثمّ كان تعاونه مع السفير الأديب عبدالله النجّار على وضع كتاب مشترك من قسمين عنوانه **الصِهْيَوْنيّة بين تاريخين**، فتولّى كلّ منهما تحرير قسم على حدة[٦]. وقد استعاد، في هذه المعالجة، معظم ما ورد في مقالاته المجموعة بين دفّتَي كتابه **حول فلسفة الصِهْيَوْنيّة**، ولكن بحرص كبير، هذه المرّة، على ذكر مصادر استشهاداته.

في هذا العام أيضًا أصدر الحاج وثيقة فائقة الأهميّة هي "**تخطيط لموسوعة فلسفيّة لبنانيّة عربيّة**" أسماها **معالم الفكر الإنسانيّ**[٧] وشاءها تتويجًا لمشواره الفلسفيّ. وقد مثّلت هذه الموسوعة طموحًا جبّارًا منقطع النظير لأنّ الحاج رمى، من خلالها، إلى استبصار كامل التراث الفلسفيّ، العالميّ منه واللبنانيّ والعربيّ، بعين الفيلسوف لا المؤرّخ.

١. تُراجَع هذه المحاضرات- العظات في**المؤلّفات الكاملة، المجلّد الثاني عشر**، تحت الرموز الآتية: ١٢/ مغزى، ١٢/ يوسف، ١٢/ فصح، ١٢/ عذراء، ١٢/ صليب، ١٢/ ميلاد، ١٢/ شهادة، ١٢/ مريم، ١٢/ شفاعة.

٢. ٨/ سأبقى.

٣. ٧/ أمّتي.

٤. ١٣/ الحوراني.

٥. ١٣/ الكك.

٦. حرّر الحاج القسم الثاني من الكتاب، وهو منشور في المجموعة تحت الرمز ٩/ تاريخين.

٧. ١٠/ معالم.

أرسل الحاج "تخطيطه" إلى صفوة من أهل الفكر ونشره، على الأرجح، عشيّة إقرار تدريس مادّة الفلسفة اللبنانيّة في المرحلة الأولى، أي على مستوى قسم الفلسفة في كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة في الجامعة اللبنانيّة. وقد عُثر، بين أوراقه المطويّة، على رسالة جوابيّة إطرائيّة في هذا الصدد وجّهها إليه صديقه المفكّر شارل مالك[1].

قسّم الحاج موسوعته المرتجاة ثلاث سلاسل فكريّة: سلسلة **الفلسفة العالميّة**، وهي الأولى في الترتيب، فسلسلة **الفلسفة اللبنانيّة**، محور الموسوعة ووجهها الأكثر ابتكارًا، ثمّ سلسلة **الفلسفة العربيّة**. وقد وزّع الحاج كلّ سلسلة على ثماني مراحل، مخطّطًا لموسوعة من أربعة وعشرين مجلّدًا، بمعدّل مجلّد لكلّ مرحلة.

في ختام العام لبّى الحاج، أخيرًا، دعوة **جامعة اتّحاد القلوب بقلبَي يسوع ومريم** لإلقاء أولى محاضراته العظات في ١٦ كانون الأوّل ١٩٧٢ أمام مذبح كنيسة سيّدة الحماية في سنّ الفيل، وكانت بعنوان **مغزى الميلاد**.

على غير الصعيد الفكريّ شهدت سنة ١٩٧٢ حدثَين بارزَين في حياته الخاصّة. الأوّل هو تعرّفه بالإمام موسى الصدر ونشوء وحدة حال روحيّة وفكريّة فريدة بين الرجلين، الأمر الذي دفعهما إلى الالتقاء كلّ أربعاء في دار المجلس الإسلاميّ الشيعيّ الأعلى، الواقعة في منطقة الحازميّة، للتذاكر في حقائق الأرض والسماء بنَهَم واستحرار فائقَين. أمّا الحدث الثاني فهو بداية تردّده المتكرّر إلى دير مار يوحنّا مارون في قِبّيع، التابع للرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، حيث توطّدت شركة روحيّة رائعة بينه وبين رهبانه الشبّان عبر مناقشات روحيّة وفلسفيّة حرّة، بعد أن قادته الظروف إلى تعميق معرفته برئيس الدير الأب جورج كرباج، أحد طلّابه القدامى في معهد الروح القدس– الكسليك، أيّام البدايات.

أطلّ العام ١٩٧٣ ليجد الحاج نفسه، هو الذي أصبح "**في ثلاثة أرباعه فوق**"، كما كان يقول، على موعد مع إحدى أغرب معاركه الفكريّة وأدقّها على الإطلاق. ففي كانون الأوّل من العام السابق، وعلى خلفيّة إقفال إكليريكيّة غزير، التابعة للبطريركيّة المارونيّة، لفترة قصيرة بسبب نضوب مواردها الماليّة، نشب صراع حادّ، على مستوى إكليروس الكنيسة المارونيّة، بين تيّار إصلاحيّ ("تجمّع كهنة المسيح الملك") راح ينادي بالمشاركة كبديل ملغٍ لما أسماه، بشيء من التهوّر، "الإقطاع الدينيّ"، وبين السلطة الكنسيّة العليا، المتمثّلة بالبطريرك والأساقفة، التي وجدت نفسها مستهدَفة بهذا الاتّهام، فيما هي ترى الإصلاح غير وارد إلّا من ضمن الأطر الكنسيّة المعتمدَة. وما إن شعر الحاج بأنّ وراء هذه الموجة الرفضيّة العاصفة مسًّا بدور بكركي التاريخيّ، وبمقام سيّد بكركي، حتّى امتشق القلم ليكتب في جريدة **الجريدة**، دفاعه الشهير عن جوهر المقام البطريركيّ. ومن جملة ما كتب، في معرض هذا الدفاع: "... **يتراءى لنا**...

١. راجع تمهيد الناشر للمؤلَّف ١٠/ معالم.

أنّ الاستكراس هو العلّة الأولى والأخيرة. أيضًا كما عند الساسة، كذلك عند بعض الإكليريكيّين. بعض هذا البعض يريد أن يتمَطْرَن. ومن بين المُتَمَطرنين بعضٌ يريد أن يَتَبَطْرَك. وبين التَمَطْرُن والتَبَطْرُك ضاع التَمَوْرُن"[1].

سبقت هذا المانيفستو الناريّ مقالات عدّة كان الحاج قد حبّرها حول دور بكركي القياديّ التاريخيّ وحول المعوشيّة كنهج، وهي مقالات كانت شرارتها تفسير حقّ البطريركيّة المارونيّة في إيواء المظلوم على خلفيّة لجوء قائد الجيش السابق العماد إميل البستاني إلى الصرح البطريركيّ، في كانون الثاني ١٩٧٣، مخافة التعرّض لملاحقات قانونيّة اعتبر البستاني دوافعها مجرَّد الثأر من رموز العهد الشهابيّ. وهكذا سنحت المناسبة كي يكتب الحاج صفحات خالدة حول دور بكركي الزمنيّ في لبنان بعد وضع الميثاق الوطنيّ. ثمّ جمع الحاج كلّ ما كتبه حول المقام البطريركيّ بمناسبة أزمتَي لجوء العماد إميل بستاني وانتفاضة "تجمّع كهنة المسيح الملك"، وأضاف إليه شهادات تقدير من أقلام أخرى غير مارونيّة، وشفعها بمقتطفات واسعة من رسائل البطريرك المعوشي في قضايا الدين والوطن، وأصدر هذه الموادّ جميعًا في كتاب بعنوان **بكركي صخرة الخلاص** في ٢٩ حزيران ١٩٧٣، تاريخ عيد الرسولين بطرس وبولس، شفيعَي غبطته.

لم تكن معركة المقام البطريركيّ هي الوحيدة التي تَحَتَّمَ على الحاج أن يخوضها. فقد كان عليه أن يثبّت الفلسفة اللبنانيّة في المناهج الأكاديميّة. وكانت الخطوة الأولى في هذا المجال تأمين رفيق له في تلك الورشة الصعبة، فوجده في الراهب اللبنانيّ الأب جورج كرباج، حامل الدكتوراه في الفلسفة من جامعة روما. لذا استمات كي يدخله في الجسم التعليميّ لكلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة ابتداء من مطلع العام الأكاديميّ ١٩٧٣-١٩٧٤، كاسرًا بذلك كلّ التحفّظات على وجود راهب ماروني في حرم الكلّيّة للمرّة الأولى في تاريخها. ومع تحقيق هذه الخطوة خاض الحاج معركته القانونيّة الأولى بنجاح، فأقرّ مجلس كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، في بحر العام ١٩٧٣، تدريس الفلسفة اللبنانيّة كاختصاص مستقلّ لدرجة الماجستير في الفلسفة. وهكذا دشّن الحاج تدريس الفلسفة اللبنانيّة لطلّاب السنة الأولى لشهادة الماجستير في مطلع العام الأكاديميّ ١٩٧٣-١٩٧٤.

رغم هاتين المعركتين لم يكن العام ١٩٧٣ عام المعارك الإكليريكيّة أو الأكاديميّة، بل عام المحاضرات-العظات بامتياز. فقد ألقى الحاج في تلك السنة خمسًا من تلك المواعظ، فضلًا عن محاضرة حول الكاهن في معهد الرسل (جونيه). وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الأخيرة هي الأولى زمنيًّا، إذ أُلقيَت في ٢٥ شباط تحت عنوان: **الكاهن... من هو وما هو**[2].

في التاسع والعشرين من أيلول ١٩٧٣، عند الساعة السابعة والنصف مساء، لبّى الإمام الصدر دعوة الحاج إلى إلقاء محاضرة في دير مار أنطونيوس (حمّانا) للرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، وكان عنوانها **مسألة الدين ولبنان**. وقد تولّى الفيلسوف بنفسه تقديم ضيفه الإمام. وبعد المحاضرة دعاه إلى تناول الشاي في دارته، فلبّى الدعوة.

---

١. ١٢/ بكركي/ ٢٣٧- ٢٣٨. حول أزمة إكليريكيّة غزير وما نجم عنها راجع ما ورد في تمهيد الناشر لكتاب **بكركي صخرة الخلاص** في **المجلّد الثاني عشر** من المجموعة الكاملة، ص ٥٢٨-٥٣٠.

٢. ١٢/ كاهن. حول موقع هذه العظات الخمس في مجموعة مؤلّفات الحاج الكاملة راجع الحاشية السابقة، رقم ١، ص ٢٤.

في غير باب المحاضرات–العظات شهد العام ١٩٧٣ بعض المؤلَّفات المتفرّقة بقلم الحاج[١]. كما ظهر له كتاب مشترك مع أحد طلابه السعوديّين، الأستاذ هاني نصري، تحت عنوان **المسيحان والعصبيّة في الإسلام والصِهْيَوْنيّة**[٢].

كان كمال الحاج قد قرّر أن ينذر لمشروعه الكبير، أي "ملحمته الفلسفيّة" بعنوان **معالم الفكر الإنسانيّ**، صفوة عمره الباقي بعد أن أكمل السابعة والخمسين. وفي انتظار التفرّغ لكتابة الموسوعة بكلّ مجلّداتها، أملت الظروف الضاغطة على الحاج أن يُفرِغ بسرعة كلّ ما عنده لتحبير كتاب ممتاز حول الفلسفة اللبنانيّة، المادّة التي كان على وشك الفوز بإقرار تدريسها الرسميّ والنهائيّ في مناهج الجامعة اللبنانيّة بعد معارك شرسة. وصدر كتابه هذا تحت عنوان **موجز الفلْ سفة اللبنانيّة**(كذا)[٣] في مطلع العام ١٩٧٤.

ثمّة أسباب كثيرة ومتداخلة دفعت الحاج إلى استعجال نشر كتابه في ذاك العام، مستبقًا به إصدار موسوعته الفلسفيّة، **معالم الفكر الإنسانيّ**، التي كان يعتزم تأليفها كاملة بعد أن بادر إلى نشر دليلها منذ العام ١٩٧٢. بعض هذه الأسباب مذكور في كلمة التمهيد التي تُصدّر كتاب **الموجز**، ومُفادها أنّه أراد جعل موسوعته الفلسفيّة العامّة في خدمة مشروع الفلسفة اللبنانيّة، لا جعل المجلّدات المخصَّصة لهذه الفلسفة، الواقعة في أواسط سلسلة **معالم الفكر الإنسانيّ**، مجرَّد حلقة من حلقات المشروع الموسوعيّ. وفضلًا عن ذلك يمكن إيراد سببين لم يأتِ الحاج على ذكرهما كتابة. الأوّل هو ضرورة توفير كتاب مرجعيّ للطلّاب الذين اختاروا الفلسفة اللبنانيّة كاختصاص في مرحلة الماجستير، وبدأوا يتابعون حصصًا دراسيّة في هذه المادّة منذ مطلع العام الأكاديميّ ١٩٧٣–١٩٧٤. الثاني هو ما كان يستشعره الحاج، بحدس رؤيويّ، من خطر على حياته، وتخوّفٍ من أن يُدفَن مشروع الفلسفة اللبنانيّة معه إن أصابه مكروه. وكان "حَفَّارو المكاريه" جمهرة[٤].

مع صدور **موجز الفَلْ سفة اللبنانيّة** (كذا) خطا الحاج خطوة كبرى نحو إقرار تدريس الفلسفة اللبنانيّة لا كمادّة اختصاص مستقلّة لدرجة الماجستير فقط، بل كمادّة تدريس معتمدَة في مناهج السنة الرابعة لدرجة الإجازة. وقد وافق مجلس كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة في الجامعة اللبنانيّة على هذا الأمر في جلسته المنعقدة بتاريخ ٤ تمّوز ١٩٧٤. ثمّ رفعت عميدة الكلّيّة، د. زاهية قدّورة، هذه الموافقة إلى مجلس الجامعة اللبنانيّة، فأقرّ بدوره، نهائيًّا، تدريس مادّة الفلسفة اللبنانيّة في جلسته الحادية والثلاثين المنعقدة بتاريخ ١٦

---

١. راجع: ١٢/ زواج، ١٣/ عشقوتي.

٢. ٩/ مسيحان. كتب الحاج القسم الأوّل من هذا الكتاب تحت عنوان **المسيحان**، فضلًا عن مقدّمة الكتاب العامّة، فيما تولّى نصري تحرير القسم الثاني. وقد ورد في مجموعة المؤلّفات الكاملة مضمون المقدّمة والقسم الأوّل والخاتمة، وذلك تحت عنوان **المسيحان في الإسلام والصِهْيَونيّة**.

٣. ١١/ موجز.

٤. لمزيد من التفاصيل حول صدور **موجز الفلْ سفة اللبنانيّة** راجع الملحق التوثيقيّ في **المجلّد التقديميّ** من مجلّدات المؤلَّفات الكاملة، ص ٣٦٤– ٣٦٨.

تمّوز ١٩٧٤. ومع هذا الإقرار التاريخيّ ربح الحاج معركة بذل لأجلها، منفردًا وبجرأة منقطعة النظير، جهدًا مضنيًا سحابة سنين طويلة، وربّما بذل حياته ذاتها، في الأخير، فداءً لها[١].

قبل هذا الإقرار كان الحاج يتابع إلقاء المزيد من محاضراته العظات. ففي أسبوع الآلام من العام ١٩٧٤، ليلة الجمعة العظيمة، في ١٢ نيسان، ألقى موعظة في مسقط رأسه، الشبانيّة، من أمام مذبح كنيسة السيّدة، وكانت بعنوان **كلمات المسيح السبع على الصليب**[٢].

في حزيران ١٩٧٤ ألقى الحاج محاضرة-عظة تحت عنوان **قلب يسوع الأقدس**[٣] من أمام مذبح كنيسة مار يوحنّا مرقس (جبيل)، وكانت ما قبل الأخيرة في حياته. أمّا الأخيرة في مسيرة العمر فقد ألقاها بين جدران الكلّيّة الشرقيّة (زحله)، في ٢٢ أيلول ١٩٧٤، تحت عنوان **شفاعة مريم العذراء**[٤].

بعد النجاح الصعب في إقرار تدريس مادّة الفلسفة اللبنانيّة رسميًّا في المناهج الجامعيّة، بدأ الحاج يوجّه عنايته نحو إدراجها في المناهج المدرسيّة على مستوى التعليم الثانويّ، فراح يخطّط لإلقاء محاضرات توجيهيّة في الثانويّات الرسميّة الكبرى بهدف ترويج الفكرة على مستوى صفوف البكالوريا. وكان الحاج على وشك إلقاء أولى تلك المحاضرات في ثانويّة الشيّاح الرسميّة للبنين (ثانويّة شفيق سعَيْد)، لكنّ اندلاع الحرب في لبنان يوم الثالث عشر من نيسان ١٩٧٥، عشرات الأمتار بعيدًا عن مبنى الثانويّة، وقبل ثلاثة أيّام من الموعد المقرّر، خنق هذه المبادرة في المهد[٥].

على صعيد آخر جرى تخريج الدفعة أولى من طلّاب الماجستير في الفلسفة، اختصاص "فلسفة لبنانيّة"، يوم الجمعة في الخامس والعشرين من تشرين الأوّل ١٩٧٤. بعدئذٍ تعرّض أساتذة قسم الفلسفة لضغوط شديدة مارستها عليهم العميدة قدّورة، وبعض الجهات السياسيّة والدينيّة الّتي لا تمتّ بصلة إلى الشأن الجامعيّ، من أجل إزاحة الحاج عن رئاسة قسم الفلسفة، وللمرّة الأولى منذ تأسيس القسم (عام ١٩٦٠، على يد الحاج نفسه)، بغية الانقضاض من جديد على مادّة الفلسفة اللبنانيّة، المدرجة حديثًا في المناهج، لسحبها من هناك. وكانت الانتخابات المقبلة لهذه الرئاسة مرتقبة في تشرين الثاني ١٩٧٤، فراحت القوى المناوئة للحاج، إن

---

١. لمزيد من التفاصيل حول ردود الفعل المتعدّدة على صدور كتاب **موجز الفل سفة اللبنانيّة**، يراجع الملحق التوثيقيّ في **المجلّد التقديميّ**، ص ٣٦٨- ٣٧٠. حول إقرار تدريس مادّة الفلسفة اللبنانيّة في مناهج الجامعة اللبنانيّة، وردود الفعل عليه، والمباشرة بتدريس هذه المادّة لمرحلة الماجستير، يراجع الملحق نفسه، ص ٣٣٥-٣٥١، ٣٥٦-٣٦١.

٢. لم يطبع الحاج نصّ هذه المحاضرة (على غير عادته)، بل أدرجها في سياق مخطوطته حول حياة يسوع المسيح وتعاليمه وموته وقيامته، ويجدها القارئ منشورة بالكامل تحت الرمز ١٤/ وكان/ ٤٤٣- ٤٨٦.

٣. ١٤/ أقدس. في هذه المناسبة أيضًا لم يُلزِم الحاج، بخلاف عادته، الجهةَ الداعيةَ طبع محاضرته في كرّاس خاصّ، فبقيت محاضرة **قلب يسوع الأقدس** غير مطبوعة. كلّ ما نُشر منها، في **المجلّد الرابع عشر** من المؤلَّفات الكاملة، هو صلاتها الختاميّة، وهي كلّ ما تمّ العثور عليه بين محفوظات الفيلسوف المخطوطة.

٤. ١٢/ شفاعة.

٥. لمزيد من التفاصيل حول هذه الناحية يراجع الملحق التوثيقيّ في **المجلّد التقديميّ**، ص ٣٦١- ٣٦٤.

في محيط الطلّاب أو في أوساط الأساتذة والتيّارات العقائديّة، تشنّ عليه، وعلى الفلسفة اللبنانيّة، حملة شعواء وسط أجواء تهديديّة وتسييسيّة تخطّت جدران كلّيّة الآداب ، بل حَرَم الجامعة اللبنانيّة. ووصل الأمر ببعض الأطراف إلى حدّ تهديد الحاج بالقتل.

ثمّ طرح مطبخ المناوئين، وكان بإدارة بعض السفارات وشلّة من الأحزاب العقائديّة اللالبنانيّة، أحد الأساتذة الناشئين في القسم، معن زياده، لمنافسة الحاج على رئاسة القسم. وفي اليوم المشهود، صباح السبت ٩ تشرين الثاني ١٩٧٤، التأم الأساتذة المعنيّون في مكتب الحاج، رئيس القسم، وبحضوره. وبعد أخذ وردّ قصيرين انسحب الأخير من الاجتماع، ومعه مؤيّدوه، باستثناء الدكتور مهدي فضل الله. وفي غيابهم جرى الاقتراع لصالح معن زياده، فيما اقترع الدكتور فضل الله وحده للفيلسوف[١].

بعد إقصاء الحاج من رئاسة قسم الفلسفة تقدَّم الرئيس الجديد معن زياده، مدعومًا من عميدة الكلّيّة وفريقها، داخل كلّيّة الآداب وخارجها، باقتراح تعديل للمناهج هدفه إلغاء مادّة الفلسفة اللبنانيّة منها بُعَيْد إقرارها في مجلس الجامعة اللبنانيّة خلال شهر تمّوز من العام الفائت. وفيما كان الحاج يردّ بنجاح أولى الهجمات على الفلسفة اللبنانيّة ويجهض مشروع زياده وصحبه[٢]، كانت الهجمة العسكريّة على وطن الميثاقيّة النصلاميّة في أوج استعارها بعد اندلا ع الحرب الشاملة في لبنان. لذا اضطرّ الحاج إلى هجر شقّته الشتويّة في حرش تابت، والالتجاء مع أسرته إلى دارته في أعالي الشبانيّة، قبل أن يتركها هي الأخرى، بسبب بُعدها عن الأحياء السكنيّة، لينكفئ مع زوجته وأولاده وأسرة أخته سامية إلى بيت الأجداد التاريخيّ، المعروف باسم "المزرعة"، والكائن في قلب البلدة، ابتداء من أيلول ١٩٧٥.

من الشبانيّة، وكانت آنذاك في أمان نسبيّ، حبّر الحاج سلسلة من عشرة بيانات ظهرت على صفحات جريدة **العمل** اللبنانيّة، بين السابع عشر من حزيران والعشرين من آب ١٩٧٥، بصيغة مقالات موقّعة باسم **أصدقاء الفلسفة اللبنانيّة**. وقد نُشرت هذه الكتابات في مجموعة مؤلّفات الحاج الكاملة تحت عنوان **البيانات العشرة**[٣].

شاء الحاج بياناته هذه استبصارًا فلسفيًّا في المعاضل اللبنانيّة التي تصارع عليها اللبنانيّون منذ القدم— وما زالوا— من غير أن يجدوا لها حلًّا مناسبًا. وقد أحدثت**البيانات العشرة** وقعًا مدوّيًا في الأوساط اللبنانيّة والعربيّة، ولدى الفئات المتصارعة على أرض لبنان، فراحوا، كلّ لأسباب مختلفة، يترقّبون صدورها بفارغ الصبر[٤]. ومع أنّ هذه البيانات عُدَّت، حين صدورها، من أجرإ مؤلّفات الحاج، فهي لم تخرج، في مضمونها، عمّا كان قد حبّره منذ سنين. ويكفي التأمّل في عناوين بعضها لتبيّن جسارة مقارباتها: **لا فضل لمسلم على مسيحيّ في العروبة** (البيان السادس)، **القوميّة اللبنانيّة واقع راهن... القوميّة العربيّة بدعة صِهْيَوْنيّة** (البيان السابع)، **الأمّة العربيّة**

١. لمزيد من التفاصيل حول هذا الأمر راجع **المجلّد التقديميّ**، ص ٣٠٧– ٣١٠، والملحق التوثيقيّ في المجلّد ذاته، ص ٣٥١– ٣٥٦.

٢. حول محاولة إلغاء الفلسفة اللبنانيّة من مناهج قسم الفلسفة في كلّيّة الآداب يراجع: ١٠/ تقرير.

٣. ١٠/ بيانات.

٤. لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع يراجع ما ورد في مدخل المجلّد العاشر من المؤلّفات الكاملة، ص ١٨–١٩.

مسيحيّة الجوهر ثالوثيّة البنية (البيان الثامن)، **أيّها العرب اِرفعوا راية المسيح! لقد حانت عودته** (البيان التاسع)، **أيّها المسلمون الأفاضل... لاتحتكروا قضيّة فلسطين** (البيان العاشر).

منذ الانكفاء إلى بيت الأجداد في الشبانيّة هربًا من شدّة المعارك، بدأ الحاج يعمل على تحصين السلم القائم بين أبناء المنطقة الواحدة في إقليم المتن الأعلى، مسيحيّين ودروزًا، في ظلّ تدهور الوضع العامّ، فعمل على تأليف ما أسماه **لجنة التوعية في المتن الأعلى**. وقد بذلت هذه اللجنة جهودًا حثيثة لتوطيد مناخ التهدئة، ولتوعية الأهلين على الأخطار المحدقة في ظلّ تصاعد حدّة المعارك، وخطر امتداد شرارتها إلى النسيج الوطنيّ الطوائفيّ في منطقة المتن الأعلى. ومن المبادرات التي قامت بها اللجنة جمع رؤساء بلديّات المتن الأعلى ومخاتير المنطقة والأعيان في نادي الشلّال (حمّانا)، وحملهم على إقرار ميثاق شرف من سبع نقاط تتضمّن جميعها العمل على منع كلّ محاولة لإشعال الفتنة بين الطوائف. وتعزيزًا لهذا الميثاق كتب الحاج، باسم اللجنة، نداء تهدئة إلى أبناء المتن الأعلى في ١١ أيلول ١٩٧٥[١].

بعد جولات المعارك الأولى كتب الحاج، في ٢ تشرين الثاني ١٩٧٥، "**وثيقة مرفوعة إلى رؤساء الطوائف ورجالات الحكم في لبنان لكشف الغطاء عن جوهر الأزمة اللبنانيّة الحاضرة**"[٢].

أخيرًا، تخلّل هذا العام نشر مقالتين للحاج في العدد السنويّ الممتاز لمجلّة **العواصف**، الأسبوعيّة المستقلّة التي كانت لسان حال الحرفيّين اللبنانيّين والناطقة بهمومهم. الأولى صدرت تحت عنوان "**كيف نؤرّخ لبنان؟**"، وتتميّز بنَفَس رؤيويّ يستحقّ أن يكون منبع إلهام عند وضع أيّ كتاب تربويّ موحّد حول تاريخ لبنان. أمّا الثانية فجاءت بعنوان "**فلسفة اللا للعامل والنَعَم للعمل**"[٣].

لا نعرف الكثير عن حياة كمال يوسف الحاج في سنته الأخيرة بين حُطام الدنيا (١٩٧٦). لا مؤلّفات منشورة. لا محاضرات. الأكيد أنّ يده اليمنى تزوّجت سبحة الصلاة، وبات لا يأكل سوى الخبز العَفِن — العَفِن لا البائت— تقشُّفًا وتزكّيًا. وبعد تَمَرُّمِه لم ينحبس دمعه ولا مرّة كلّما كان يتقدّم من مذبح الربّ لاقتبال القربان المقدَّس. كان يقيم الصلاة ثلاثًا... بالفم المُنْشِد، والمقلة الدامعة، والقلب المُكوكَب. وتكرّس للمحاضرات العظات، ولترسيخ المصالحات بين أبناء البلدة الواحدة، وأحيانًا بين أبناء الطائفة الواحدة في البلدة الواحدة. كانت المحبّة متلألئة من أَصْغَرَيه، ومسحة الكمال الآخر متضوّعة من خلف مَحْبِسَيه.

ألقى محاضرة–عظة في حمّانا، ولا نعرف من أمام أيّ مذبح، ولكنّ عنوانها معروف: **حبّة الخردل**[٤]. وقد نُشر نصّها غِبَّ الممات في مجلّة **الصيحة**، لسان حال الشعبة الخامسة في لواء عكّار. وفي المجلّة عينها نُشرت له، أيضًا غِبَّ الممات، ياقوتة أخرى هي مقالة

---

١. ١٤/ متن.
٢. ١٤/كشف.
٣. ١٣/ نؤرّخ، ١٣/ عامل.
٤. ١٣/ خردل.

حملت عنوان: **مريم العذراء معنا ... فلا تخافوا!**[١]. وثمّة، أخيرًا، وثيقة بعنوان **لبنان يتطوّر بمعزل عن اللبنانيّين نحو الغاية التي وُجِدَ لها أصلًا**[٢]، وهي تأمّلات في المعاني الخلفيّة لصراع ١٩٧٥. والمُرَجَّح أنّها من أواخر تحبيراته الفلسفيّة.

عاش الحاج أيّامه الأخيرة على بركة السماء وحدها، مستظلًّا شفاعة مريم، ملتحفًا عزّتها، مستحمًّا بنور حبّها. ومن يدري؟ فربّما كتب، في تلك الأيّام الخاتمات، صفحات قليلة من مجلّده الأوّل في موسوعة **معالم الفكر الإنسانيّ**، وعنوانه **في العقلانيّة الأسطوريّة**[٣]، مع أنّ هذا مستبعَد. أو ربّما حبّر بعض مقاطع من كتابه المخطوط حول حياة يسوع المسيح وأعماله وموته وقيامته (والبادئ عنوانه بنقاط ثلاث): ... **وكان يسوع المسيح**[٤].

قبل أقلّ من أسبوع على استشهاد الحاج أرسلت الأخت ماتيل الرياشي، منشئة **جامعة اتّحاد القلوب بقلبَي يسوع ومريم**، سيّارة أجرة لتأمين نقله من بلدته الشبانيّة إلى بلدتها الخنشارة، بعد أن انتقلت إليها هربًا من جحيم المعارك قرب منزلها الكائن في محلّة الدكوانة. لكنّ السائق عاد بخفَّيْ حُنين، لأنّ الحاج رفض المغادرة، وأصرّ على البقاء حيث هو[٥]. كما قام صديقه الراهب اللبنانيّ الأب جورج كرباج بمحاولة مماثلة قبل يومين من الفاجعة بعد أن قرَّر، مرغمًا، ترك منطقة المتن الأعلى نظرًا إلى ما كانت تعانيه من غليان. التقى الفيلسوف، وألحّ عليه بالمغادرة معه ولو لفترة قصيرة، لكنّ الحاج أبى، وفتح أزرار قميصه، مخرجًا من تحتها سبحة العذراء المطوّقة لعنقه، وقال لصديقه الراهب: **"لقد سلّمتها ذاتي"**[٦].

ثمّ أطلّ يوم الثاني من نيسان ١٩٧٦. في ذلك اليوم الإبليسيّ كان الحاج يؤوب، سيرًا على الأقدام، من اجتماع رعى فيه مصالحة بين دروز بلدته. هذا كان يوم جُمعة، أوائل بعد الظهر. مرّ من أمام بيته قاصدًا كنيسة صغيرة في البلدة للرجوع إلى رحاب ربّه. هناك، على مسافة قصيرة من البيت، وأمام أعين شقيقته سامية وابنتها فلورانس وابنه الأصغر بسّام، وقد صادف وجودهم في المكان على مسافة قصيرة، انقضّت من العدم سيّارةٌ قطعت الطريق عليه، وفيها أربعة مسلّحين غير ملثّمين. حوار قصير مع الخاطفين أمام الأعين المذهولة لابنه وأخته وابنة أخته! لم يمتثل الحاج بسرعة لطلب هؤلاء الغرباء مرافقته. أوجس خيفة من محيّاهم. من لهجتهم التي لم تستطع أن تكتم نبرة سوء. نزل أحدهم من السيّارة ورشقه بعبارات ناريّة بين رجليه ليحبط مقاومته. ثمّ أمسكه من ظهره ودفعه إلى مقعد السيّارة الخلفيّ، وانطلق موكب الموت ينهب الأرض نهبًا.

---

١. ١٢/ تخافوا.

٢. ١٣/ معزل.

٣. ١٤/ أسطوريّة.

٤. ١٤/ وكان.

٥. بحسب ما روته الأخت ماتيل بنفسها لأنطوان مكرزل خلال لقاء جمعهما بمناسبة قدّاس أُقيم لراحة نفس الفيلسوف، في مبنى كنيسة دير مار الياس انطلياس القديمة، في ذكرى مضيّ ستّة أشهر على استشهاده.

٦. راجع **المجلّد التقديمي**، الحاشية ٧٥١، ص ٣٢٦.

كانت الشبانيّة، شهرذاك، تحت سيطرة قوى الأمر الواقع، وكانت هناك، عادة، حواجز مسلّحة لا تُحصى على الطريق التي سلكها الخاطفون من الشبانيّة باتّجاه قِبَّيع–الكحلونيّة. لكنّ ذاك الثاني من نيسان كان شأنًا آخر. فقد تبخّرت الحواجز يومذاك بسحر ساحر، ولم يعترض أحد طريق الموكب. آخر مشهد للحاج في السيّارة الملعونة، كما تتذكّر أخته، هو ضمّ أصابع يده اليمنى وتحريكها عموديًّا أمام الخاطفين، كمَن ينصحهم بالتروّي.

منذ تلك اللحظة المشؤومة وحتّى فَجّ رأس كمال الحاج، هامة العقل المؤمن والإيمان العاقل، بفرَّاعة آثمة في وَضَح النهار وعلى قارعة الطريق التي تعبر منطقة حرجيّة نائية بين بلدَتي قِبَّيع والكحلونيّة، مسافة زمنيّة لا تتعدّى ربع الساعة بحسب تقدير الطبيب الشرعيّ، ولكنّها تتعدّى كلّ انقضاء في ذاكرة لبنان التاريخ، الذي لا يبالي إذا استقال لبنان الصَغارة من نشدان الحقيقة حول اغتيال أكبر فلاسفته. فلبنان التاريخ لن ينحر العدالة، ولن يختطف الذاكرة، ولن يتعب من واجب جلاء الجرم العظيم ولو بعد مديد الأزمنة، لأنّه والحقيقة صِنْوان.

أيّ جحيم قاسى الحاج في ربع الساعة الأخير؟ بل أيّ إشراق ربّما حلّ به، وقد عرف الآن أنّ حقد المرتزِقة الأعمى سيستعجل رميه في أحضان ربّه؟ عَثَرَ عليه، صدفةً، الأب مارون متّى، الراهب اللبنانيّ، فيما كان مارًّا بالمكان. كانت في جسم المارونيّ الأبيّ "لَفْطَة" حياة بعد، فَمَشَحَه مارون الراهب قبل أن يلفظ الروح.

لن يبرح استشهاد الحاج أبدًا، في مغازيه، محفورًا في ضمير الأجيال الآتية، ولن ترتوي عقول الغد من غَرْف يواقيت الحقّ المنثورة في تَرِكَته الجبّارة كما النجوم في عَنان السماء. سيظلّ كمال يوسف الحاج ملفان القوميّة اللبنانيّة الإنسانيّة، وسيّد كرامة الضاد، وضمير الميثاقيّة النَصْلاميّة، وعقل الفلسفة اللبنانيّة، وسَلِيح التقدّس بالمسيح، ورسول البنوّة للعذراء. وسيظلّ هكذا بنتاجه وضريحه، لأنّ ضريحه هو لمسة صدقه، وربّما كان الشاهد الأكبر على خلوده في سناء التاريخ وفي سماء الحقيقة.